مـــن مذكـــــرات مغتربـــة

(روايـــــــة)

تأليـف

فاطمـــــة البرجـــي

السَّعيد
للنـــشر والتـــوزيـــع

اسم الكتاب/ من مذكرات مغتربة
الكاتبة / فاطمة البرجي
الطبعة الأولى 2019
تصميم الغلاف : محمد محسن
المراجعة اللغوية : فاطمة البرجي
رقم الإيداع : 2019/20607
الترقيم الدولي: 3 - 66 - 6727 - 977 - 978
التصنيف: رواية
الناشر : السعيد للنشر والتوزيع
المدير : لميـــاء السعيـــــد

برج الهادي – الدور الأول - 36 ش عبد الحميد الديب – شبرا مصر

01550096215 - 0222017260

elsaidpublisher@gmail.com

السعيد
للنشر والتوزيع

إهـــــداء

إلى أمي

التي أعلم أنه لم يكن سهلًا عليها كوني ابنتها

والتي لولاها لما حققت أي شيء في حياتي.

***

إلى أبي

الذي لولا هامش الحرية الذي سمح بها لما وصلت لأي نجاح.

***

إلى صديقاتي الحبيبات الخمس اللاتي لولا تشجيعهن لي للاستمرار في الكتابة لما ظهر هذا العمل للنور.

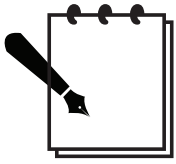

سـوف أبدأ بحزم حقائبي لـن أسـتطيع أن أكمل يوم أخـر في لندن رغـم أن رجوعـي فـي هـذا التوقيـت يثبـت فشـلي الـذي لا أسـتطيع تبريره.

لـم يكـن نجاحـي هنـا خيـارًا كمـا لـم يكـن الفشـل موجـودا في قاموسـي، هل يمكني وضع الغربة كتبرير للفشـل؟ أظن أنها سـتكون حجة قويـة في دفاعي عن نفسـي أمـام أهلـي، ولكن ماذا عن السـبب الحقيقـي وراء هـذا الهـروب الـذي سـأظل أحتفـظ بـه لنفسـي ولـن أستطيع الإعلان عنه؟

هـل سأسـتطيع أن أنسـى؟ يقولـون إن الزمـن كفيـل بمـداواة كل الجروح وهو ما لم أسـتطع فعله هنا فـي لندن فهل سـأتمكن من فعله في مصر؟!

ولكن هذه ليسـت بداية القصـة ولم تكن غربتي بهـذا البؤس الذي وصلـت إليـه، بالعكـس لقـد كانـت حياتـي تمتـلأ بالنجـاح والرضـا وبالسـعادة، سـعادة أكبر من أ ن تكون حقيقية أو أنها لم تكن من حقي لأطمح لها.

ربما يجب أن أبدأ من مصر قبل الحديث عما حدث هنا في لندن، ربما يحب أن نجد دوما نقطة بداية نبدأ منها السرد بداية تصلح لتظهر كم كنا أخيارا قبل أن نصل لما وصلنا له، بداية تعطينا العذر لِما أصبحنا عليه.

ولكن هل حقا أبحث عن عذر أو أحاول أن أعيش دور الضحية؟ هل لا يوجد ما يمكن أن أحكيه عن نفسي قبل الغربة أم أنني أمارس على نفسي جلد الذات الأصعب ألف مرة من محاسبة الآخرين.

حياتي لم تبدأ من لندن ولكنها كانت خطوة في حياتي استحققتها بعد مشوار طويل من النجاح والتعب، عندما كان واضحًا ماذا أريد وإلى أين سأصل، وقت ما كانت تملأني الأحلام والثقة عندما كنت أنا قبل أن تضيع مني نفسي في ضباب لندن.

***

أتذكر يوم تخرجي من كلية العلوم، يومها دمعت عينا أبي عندما عرف أني كنت الأولى على قسمي، احتضنني وهمس في أذني كأنه يبوح بسر خطير قائلا «أنا فخور بكِ يا أميرة».

آه يا أبي كما أفتقدك وأحلم أن أسند رأسي على كتفك وأبكي وأُعرفك بما فعلتْه بي الغربة أو ما فعلته بنفسي، أعلم أنك ستسامح كما فعلت معي طوال عمري عندما آتي معترفة بأخطائي لتقول بثقة «أعلم أنك لن تكرريها».

هـل يمكنـك فعـلا أن تسـامح أميرة مـن قلبـك يـا أبي كمـا كنت معتـادا علـى تسـميتي أم هـو ضميـري الـذي أحـاول إراحتـه بأحلام بعيدة؟

كل مـا رفضته في مصر سـيكون أقصـى أحلامي بعدما فشـلت في تحقيق أي شـي ء في لنـدن، ندعي القـوة ونحن على بُعد مناسـب من المشكلات، أما إذا اقتربنا نفاجأ بمدى ضعفنا وهشاشة ادعاءاتنا.

***

مضت السـنون بـي وأنا فـي طريق أحلامـي، لم أُضـع الكثير من الوقت وبـدأت فـي إعـداد الدراسـات العليا إلـى جانب عملي كمعيدة ناقشـت الماجيسـتير وحصلـت عليه بإمتياز، لم أشـعر بوجود مشكلة في حياتي حتى ظهر هو فيها.

كان ممـن حضـر مناقشـة الرسـالة وأتـى فـي النهايـة وبـارك لـي حصولـي عليها، لـم يكن هـذا هـو الملفـت للنظرفي هـذا اليـوم فقد هنأنـي العديد من أسـاتذتي وطلابـي وأصدقائي ، الملفـت هو حديثه مع إحـدى قريباتـه التي تعمـل في الكليـة للتقدم لـي، أيقظ فـي كريم أحـلام وجود رجـل في حياتـي، أجلـتُ أحلام وجـود أسـرة وأطفال حتى ألتقي الرجل المناسب.

حتـى وجدته شـابا يعمـل مهندسًـا فـي إحـدى الشـركات متعددة الجنسـيات، طموح وعلى درجة عالية من الثقافة و الخلق والوسـامة،

مـاذا كان يمكني أن أطلب أكثر مـن ذلك؟ كان كريم يقـول إنه لا يريد فقط زوجة جميلة يكمل بها هيئته الاجتماعية ولكنه كان يريد شـريكة لحياته تشـاركه أفـكاره وأحلامـه وقد وجدنـي، وافقت علـى الخطبة وكنت سـعيدة هل يمكن لومي علـى حلمي أن يكون لي حيـاة طبيعية بجانب حياتي العملية؟

تمت الخطبة فـي حفل صغير في بيتـي وكان قرارا مشـتركا بيننا أن يكون بهذا الشـكل حتى نوفر لمصاريف إنشاء شـقتنا، بدأنا بعدها في الإعدادات فعلا، لم يكن ينقص سـوى شـهور قليلة على الزواج حتى حدث ما حدث.

تتملكنـي الدهشـة الآن عندما أتذكـر مـا أدى إلى عدم إتمـام تلك الزيجة، كنـت قد بـدأت في دراسـة الدكتـوراه، كانت فتـرة بها ضغط عمل حيـث كنت فـي فتـرة امتحانات لمـواد تمهيـدي الدكتـوراه إلى جانـب عملـي كمعيـدة فـي الكليـة ممـا يتبعـه مـن أعمـال مراقبـة لامتحانات الطلبة.

أتذكر تلك الفترة رغم مرور سـنين عليها، ثلاث أسابيع من العمل المتواصل كانت السـبب في فسـخ الخطبـة، ثلاث أسـابيع أتى بعدها كريم يسـأل عن أولويته في حياتـي، ظننته يمزح فـي البداية فضحكت إلا أني وجدته يتحـث بجدية ويسـأل: أميرة ما هي ترتيـب أولوياتك، هل أنا في أعلى هذه الأولويات أم عملك يأتي أولا؟

أجبت قائلة: ما معنى هذا السؤال الآن؟

– لأنـي أرى أولوياتك بناءً علـى الثلاثة أسـابيع الماضيـة، أنا آتي بعد عملك، لا أريد أن تستمر حياتنا في المستقبل على هذا النحو.

– كريـم الأسـابيع الماضية كانـت ممتلئـة بالضغـط لا يمكنك أن تضعها كقاعدة لمستقبلنا

كريـم فـي غضـب: لا يـا أميـرة لا تلـوِي الحقائـق، الحقيقـة أنك لا يمكنـك أن تفعلـي الاثنين معًـا، أن يكـون لك حيـاة علميـة وبيت وأسـرة في الوقـت نفسـه، الضغط يشـتتك ويجعلـك غير قـادرة على الوفـاء بوجاباتـك، المشـكلة أن تقصيـرك يكـون فـي اتجـاه حياتـك الشخصية ولا يكون أبدًا على حساب عملك.

تطلعت إليـه صامتـة ومبهوتة فأكمـل: أميرة لـم يعد أمامـي إلا أن أخيرك بين الدكتوراه وبيني.

قلت في ثـورة: الدكتوراه هـي حلمي يا كريـم، أول لقـاء بيننا كان عند مناقشتي للماجيستير كيف يمكنك أن تطلب ذلك؟

قال في نفاذ صبر: أنت لا تستطيعين عمل الاثنين يا أميرة

– وماذا أفعل هل أجلس في البيت؟

– يمكنك أن تختـاري وظيفة لا يوجـد بها ضغـط، وظيفة يمكنك الانتهاء منها في الثانية ظهرا و.....

قاطعته قائلة: ومـاذا يحدث عندما يكون في هـذه الوظيفة نوعا من الضغـط أيضـا؟ وقتهـا سـيكون أمامـي الجلـوس فـي البيـت بعندمـا

استنفذت كل الخيارات المتاحة، المشكلة يا كريم أنك تعرف أنه سيكون هناك تقصير ولكنك لا يمكنك احتماله، لا يمكنك المشاركة بنفسك لتقليل هذا التقصير.

قال في تصميم: هذا آخر كلامي يا أميرة إما أنا وإما الدكتوراة.

***

لم أستطع التخلي عن أحلامي بتلك السهولة حتى لو كان كلامه به جزء كبير من المنطقية. حاولت إقناع كريم أني لا أختار بينه وبين أحلامي إنما هو دفاع عن كياني، حاولت تذكيره أن طموحي هو جزء مما جذبه في شخصيتي، فأنا تلك الشريكة التي ستشاركه أحلامه وأفكاره، ولكنه أخذ قراراً بالابتعاد متمنياً لي التوفيق في حياتي.

حزنت على فسخ الخطبة، لم يكن ما بيننا هذا النوع من قصص الحب المشتعلة ولكن كان يوجد بداية لنوع آخر من الحب الهادئ كنت أرى بداياته مع التفاهم والتوافق الذي ظننته موجوداً في البداية.

لم يكن أمامي سوى التركيز في عملي مؤجلة مرة أخرى أحلام وجود أسرة وأطفال، لم أقصد أن يكون هذا الحلم هو الحلم الذي يمكن التضحية به ولكني لم أكن أستطيع الحصول عليه مع التضحية بكل أحلامي الأخرى.

دائـرة العمـل تأخـذك مـن أي مشـكلات شـخصية لتلقـي بك في مشـكلة الانتهـاء منـه هـو، لتجـد نفسـك فـي النهايـة لـم تجـد حـلاً لمشـكلاتك ولكنها أخرجتها من محور تفكيرك ووضعتها جانبا حتى يحين وقتها.

وهكذا كانت أيامـي حتى وجدت إعلاناً في الكليـة لمنحة لإكمال رسـالة الدكتوراة في بريطانيا، لم أتطلـع في البداية إلـى الإعلان بأمل فقد كان يحتـوي على عدد كبير من الشـروط والمتطلبـات إلى جانب عـدد مـن الاختبـارات وتحديـد المواضيـع الأهـم بالنسـبة لهـم فـي رسائل الماجيستير الحاصل عليها من يريد الالتحاق بالمنحة.

قدمت كمـا قدم غيـري الكثير فهي فرصـة لا نعرف متى سـتتكرر، لذلك لم تكـن المنحة بمشـكلة حتى قبُلت بهـا، نعم قبُلـت في منحة يتقدم لها المئـات من حملة الماجيسـتر، فرصـة لن تتكرر لمسـتقبلي العملي، عدة سـنوات فـي الغربة أعـود بعدهـا للتدريس فـي الجامعة أو العمل كمستشـارة في أكبر الشـركات فـي مصر، تحسـين لا يمكن تصديقه لمسـتقبلي العلمي مع تأجيـل لحلم تكوين أسـرة والحصول على أطفال إلى أجل غير مسمى.

هـل كان كريم محقاً فـي قوله أنني لا يمكنـي أن أفعـل الإثنين معًا؟ علـى الأقل هـو محـق الآن، فأنـا لـم يكـن يمكنني الإقـدام علـى هذه الخطوة وهو بحياتي، لم أكن سـأطلب منه أن يسـافر معي إلـى بريطانيا ويترك حياته من أجلي وكنت سأكتفي بما أستطيع تحقيقه وأنا بجانبه.

ما كنـت أعانيه حقاً هـو ابتعادي عن أبـي لأول مرة فـي حياتي، لم أكن أتخيل وجود مسـافات بيننـا تمنعني من حضنه الدافـئ، إلا أن رد فعل أبي كمـا عاهدته دوما ربـت على خدي قائـلا في رفـق «أميرة أنا أثق بك ولن يكون حبي لك هو العائق لمستقبلك».

كنت أعرف مقدار الحـزن الذي يحمله ولكنـه كعادته أرجع القرار في النهاية لي.

بعـد قبولـي فـي المنحـة بـدأت دوامـة إعـداد الأوراق اللازمـة للحصول على التأشـيرة، وهو ما لـم يكن بالأمر الهين أبـدا وأصعبهم هـو أوراق موقفـي المالـي وهـو عبـارة عـن ثـروة صغيـرة توضع في إحدي البنـوك المعروفة تؤكـد مقدرتي علـى تحمل أعبـاء الإقامة في بريطانيـا لمـدة تصـل إلـى أربـع سـنوات هـي مـدة المنحة حيـث أن المنحـة تغطـي تكاليف الدراسـة فقـط أما تكاليـف المعيشـة وخلافه فكنت أنا من يتحملها.

جـريٌ مـا بيـن المصالـح الحكوميـة والجامعـة لتقديـم الأوراق المطلوبة قبـل مقابلة السـفارة للحصـول علـي التأشـيرة، المقابلة لم تكـن بالصعوبـة المتوقعـة نظـرًا لتقديـم أوراق الحالـة الماديـة التـي تحملها أبي بالكامل، وبالطبع حصولي علي المنحة.

بـدأت في إجـراءات السـفر الفعليـة بعد حصولـي على التأشـيرة، وضعت مـع أبي خطـة لأيامـي الأولـي فـي لنـدن، أجرينا حجـزا في فندق لندن سـتار حتـى تدبيـري لإحدى الشـقق السـكنية هنـاك وقد

وقـع اختيـاري علـى ذلك بـدلًا مـن السـكن الجامعـي المتوفـر رغم ارتفاع التكلفة المادية للشـقة الخاصة بالمقارنـة بنظيره الجامعي، وقد وافقني أبي على ذلك.

اشـتريت ملابـس مناسـبة لطقـس لنـدن الممطـر حتـى فـي فصل الصيـف، وبدأت فـي إعداد حقائبي، سـاورني شـعور بالقلـق على ما كنت مقبلـة عليـه أربع سـنوات وحدي فـي بلد غريـب بعيد عـن أبي وأمي وأخي، لـم أعرف مدي قدرتي على احتمـال ابتعادي عنهم، فقد كانت أول تجاربي في السـفر وحدي، حاولة إبعاد هذا الشعورموهمة نفسـي بأن وسـائل الاتصال الحديثة سـتمكني مـن أن أراهـم ويروني يوميا وستمكنهم من الاطمئنان علي ومعرفتي لأخبارهم

وجاء اليوم الموعود، يوم سـفري إلى لندن، احتضنت أبي محاولة التماسـك وعدم البكاء، همـس في أذنـي قائلا «أنـا اثق بك يـا أميرة، ليرجعك الله سالمة».

بكت أمي وهـي تكرر نصائحها بأخـذ الحذر دوماً مـع دعواتها لي بالتوفيق والعـودة سـالمة، احتضنت أخي الـذي كـرر كلام أمي بأخذ الحذر بصورة أكثر تماسكا.

سـرت عدة أمتار ولـم أسـتطع منع دموعي وأنا ألتفـت إليهم لأرفع يدي ملوحة ويردوا بمثلها.

عندمـا جلسـت فـي الطائـرة تمنيـت أن يكـون بجواري شـخص أعرفه ربما لأسـتطع فتح حـوار يخرجني مـن قلقلي مـن لحظة إقلاع

الطائرة، تطلعت إلى من بجواري ولكنه كان مشغولا بقراءة كتيب في يده.

وضعت كلتا يدي على مساند مقعدي وأنا أشعر بارتفاع الطائرة من الأرض وحاولت إغماض عيني وأنا أردد أية الكرسي في سري، لا أعرف كم من الوقت مر حتى بدأت دقات قلبي في الانتظام مرة أخرى ونظرت من النافذة بجواري وتطلعت إلي سماء مصر متسائلة كيف ستمر السنة الأولى حتى أراكِ ثانية؟

***

بعد حوالي خمس ساعات طيران هبطت الطائرة في مطار هيثرو، رغم قلقي في بداية الرحلة إلا أن النوم غلبني خلال الرحلة ربما لطولها وشعوري بالملل.

بعد خروجي من المطار طلبت سيارة أجرة عن طريق الهاتف ووصلت إلى فندق لندن ستار بعد حوالي ثلث ساعة فقط، بعد التأكد من الحجز وبياناتي الشخصية صعدت إلى الحجرة وهاتفت أبي لا أتذكر للمرة الثالثة أو الرابعة من وصولي لندن لأطمئنه على وصولي للفندق رغم جمال الحجرة ورغبتي في مشاهدة لندن إلا أنني لم أستطع سوي السقوط نائمة في أول ليلة في لندن.

وصلت لندن عند بداية العطلة الأسبوعية ولهذا قضيت اليومين في مشاهدة شوارع لندن والذهاب إلى أبرز معالمها هناك والمرور

بشارع العرب لبعض الوقت، بدأت في البحث عن شقة مناسبة لا تبعد كثيرا عن الجامعة.

فعلت الكثير وحدي في بريطانيا، طريقة عمل العقل تختلف إذا كنت تعرف أن ما تفعله لن يفعله غيرك، أن الآخرين في حاجة أن تبث الطمأنينة إلى حياتهم بإثبات أنك قادر على ذلك.

وهذا ما فعلته في أول أيامي في لندن لم أعطِ للقلق مساحة وظللت أبث في نفسي القوة بأني قادرة على ذلك، انتقلت لشقة صغيرة وبدأت في الذهاب إلى الجامعة مع بداية الدراسة، أصبحت أستخدم قطارات الأنفاق في ذهابي وعودتي وقد بدأت الاعتياد على وجودي بلندن.

***

دخلت في دوامة الدراسة وحاولت عدم التركيز على ما ينقصني هنا في لندن، فلم يكن لي علاقات اجتماعية لا مع جيران المسكن ولا مع زملاء الدراسة، البريطانيين عموما شعب متحفظ والوضع أصعب وأنا عربية فكانت مجمل علاقتي بهم هي «كيف الحال؟» و«مع السلامة».

مع بداية فصل الشتاء بدأت في استيعاب مشكلة طقس لندن الذي يمكنه أن يصيبك بالاكتئاب بدون أي ظروف مساعدة، كشعوب عربية معتادة على رؤية الشمس يومياً لابد أن يصيبك الإكتئاب لهذا الجو الممطر الغائم لمدة 24 ساعة في اليوم.

كنت أحب المطر أنتظره في مصر فهو مطر يمكن انتظاره فعلا لغيابه النسبي في فصل الشتاء، أما في لندن فهو مطر مستمر طوال اليوم بكميات مهولة والمظلة في هذه الحالة هي صديقتك التي لا يمكنك الاستغناء عنها، أصبحت أشعر بالدهشة عندما أرى الشمس في لندن وهي لحظة تستحق تصويرها لندرتها، لابد أنهم كانوا يحتلون البلدان الآخرى قديماً من أجل أن يروا الشمس.

طبعا أول أيام في لندن حدثت لي حالة من البلبلة أثناء عبور الطريق من اتجاه قيادة السيارات في لندن فاتجاه السير يكون على اليسار لوجود مقود السيارة على اليمين عكس الوضع في مصر.

كانت الشهور الأولى هي الأصعب انكببت فيها على الدراسة بطريقة مضاعفة كأني بهذا الانكباب أختصر غربتي، بالتأكيد لم أتمكن سوى بالتظاهر أنني بخير عندما أرى عائلتي وأن كل ما أعانيه يمكن التعايش معه.

***

عندما كان يشدني الحنين إلى مصر كنت أذهب إلى شارع العرب المعرف في لندن باسم «Edgware Road» وهو عبارة عن مجموعة مطاعم ومقاهي ومحال لمجموعة مصريين ومغاربة وتونسة وكل الجنسيات العربية تقريباً، عندما تدخله ستلاحظ أسماء المحلات باللغة العربية وتري العرب من كل الجنسيات وتسمع لغتك العربية من جديد وكأنك رجعت إلى وطنك لعدة ساعات.

إحساس غريب أن نهرب من أوطاننا ثم نبحث أول شي ء عما يذكرنا بها في غربتنا وكأنها معنا وكأننا لم نتركه.

كان ما يخفف إحساسي بالغربة هو الذهاب إلى إحدي المقاهي وطلب فنجان من القهوة باللغة العربية والاستمتاع بتذوقه وأنا أري حولي العديد ممن جاءوا لنفس السبب فقط مداواة للحنين وعلاج لغربة قاسية.

كان هذا روتين حياتي في لندن لعدة أشهر حتى أحسست بالدوار وأنا في طريقي للخروج من المنزل في إحدي الأيام، جلست علي أقرب كرسي حتى أستعيد أنفاسي وأدركت أن دوامة الدراسة والغربة التي اعيش بها لم تجعلني حتى التفت إلى صحتي.

كانت دراستي الجامعية تكفل لي التأمين الصحي في عدد من المستشفيات بلندن، ولم يكن هناك مفر من الذهاب إلى إحدي هذه المستشفيات.

عندما ذهبت إلى المستشفي طلب مني الطبيب البريطاني مجموعة من التحاليل والأشعة الكاملة علي الجسم وهذا هو الحال دوماً عندما تذهب للأطباء في الخارج لن يعطوك أبداً دواء علي حسب وصفك المبدئي للمشكلة ولكن ستتأخر هده الخطوة حتى إجراء تمام الكشف عليك.

احتجت إلى يومين لإجراء ما طلب مني وعندما عدت إلى المستشفى لم أجد نفس الطبيب البريطاني ولكني وجدت طبيب

أخـر، تحـدث معـي فـي البدايـة بالانجليزيـة شـارحاً غيـاب الطبيب الأخر ثم أمسـك بالأشـعة والتحاليـل وبـدأ بفحصها ثم توقـف قائلا بالعربية: اسمك أميرة، هل أنتي مصرية؟

ابتسمت وتطلعت إليه قائلة: نعم. هل أنت مصري إيضا؟

ابتسم قائلا: نعم أنا الدكتور يحيي.

بعدما فحص الأشـعة والتحاليل أكد لي أني بخيـر ولكن يجب أن اهتم بغدائي ولا مانع من أخد بعـد الراحة من العمل ثـم اختتم كلامه قائلا بالعربية: سلامتك.

لم أذكـر لأهلـي حكاية مرضـي فآخـر مـا كان ينقصهم هـو القلق علي صحتـي، رجعـت لروتينـي اليومي مع وضـع إرشـادات الطبيب صوب عيني.

***

لـم يمر عـدة أيـام حتـى قابلت يحيـي مـرة آخري فـي إحدي محـلات شـارع العـرب كان أمامي فـي طابورالدفـع، بادرت قائلة: دكتور يحي كيف حالك؟

التفـت إلى وتطلع لحظـات كأنه يحـاول تذّكري فقلـت في حرج: أميرة، كنت عندك في المستشفي من عدة أيام.

قال في هدوء: أه طبعاً أميرة. كيف حالك الآن؟

قلت في مرح محاولة مداراة حرجي: الحمد لله أفضل بكثير.

كان قد أخذ مشترياته بعد حسابها وبدأت في وضع ما يخصني فابتسم ورفع يده مودعاً قائلا بالانجليزية: أراك قريباً.

بعدها بفترة ليست بالقليلة عندما كنت في أحدي مقاهي شارع العرب أحتسي القهوة كما هي عادتي وجدته يقف أمامي قائلاً: هل يمكني الانضمام إليكِ؟

تطلعت إلى يحيي وأجبت مبتسمة: طبعًا.

جلس مبتسمًا، كان يحيي في أواخر الثلاثنيات من عمره، طويل القامة له عينان عسليتان وشعر أسود ناعم، تحدث اخيراً قائلا: كيف حالك يا أميرة؟

– الحمد لله تذكرتني اليوم يا دكتور يحيي.

قال مبتسماً: يحيي فقط.

ساد الصمت لدقائق فقطعه هو قائلاً: ماذا تفعلين في لندن؟

أجبت: أحضر الدكتوراه في الكيمياء الحيوية في جامعة لندن.

ساد الصمت مرة آخري قطعته أنا هذه المرة قائلة عندما رأيت كتاباً أمامه: ماذا تقرأ؟

رفع الكتاب قائلا "I Am Malala": هل تعرفينها إنها طالبة باكستانية ضربوها بالرصاص لإصرارها الذهاب إلى المدرسة نجت من الموت بأعجوبة وتقص قصتها في هذا الكتاب.

قلت مبتسمة: يبدو كتاب جيد.

يحيي: جيد جدا، يمكنك استعارته بعدما أكمله ونتناقش به.

كان يتحدث ببساطة وتلقائية فقلت: كيف تعلم أنك ستراني مرة أخرى؟

تطلع إلى مبتسما ثم قال: لا أعرف ربما أريد دلك.

***

مع الوقت توطدت علاقتي بيحيي، أصبحت لقاءات شارع العرب تتم بصورة دورية، وكانت لهذه اللقاءات سعادة لا يماثلها شي ء بالنسبة إلي، حديثنا الذي لا ينقطع عن أخر الكتب والأفلام السينمائية وأخر الأخبار العالمية.

لم يكن مجرد حديث كان حياة وعلاج لغربتي ووحدتي، حتى عندما واجهتني مشكلة في مصاريفي لجئت إليه، فتكاليف المعيشة في بريطانيا كانت مرتفعة جدا كنت أنفق شهرياَ ما بين إيحار للسكن ومصاريف الطعام وخلافه ما تنفقه أسرة مكونة من ثلاثة أشخاص في مصر، كنت أعرف أن أبي لن يشتكي وسيتحمل للنهاية ولكني اشفقت عليه.

فاتحت يحيي في الموضوع فساعدني للحصول علي وظيفة مترجمة في أحد المراكز المتخصصة لتعليم اللغة العربية لإبناء الجالية العربية وكانت وظيفة لا تشغل الكثير من الوقت حتى لا انشغل عن الدراسة.

الجالية العربيـة كانت تحاول أن تتشـبث بجذورهـا، عرفت عرب أولادهـم لا يعرفـون اللغـة العربيـة ويشـعرون بالأسـف علـي ذلـك ويندمـون علـي غربتهـم التـي أوصلتهـم لهـذه النتيجـة، المركـز كان محاولة لعدم الوصول لذلك.

أصبح يحيـي في كل تفاصيـل حياتي فـي لندن، يعرفنـي بأصدقائه العـرب والبريطانييـن، يذكرنـي بالاهتمـام بصحتـي وأخـذ الراحـة الكافيـة، يعطينـي كتـاب ناصحـاً بـأن أقـرأه لأنـه جيـد، يصتحبنـي لمشـاهدة الأفلام ، لم أكـن احتـاج لتعريف علاقتـي به ولا هـو اهتم بذلك، اكتفيـت بالقول لأبي بأنـي قابلت مصريين سـاعدوني وجعلوا حياتي في بريطانيا أسهل.

***

كل مـن حولنا في لنـدن لـم يقتنعـوا بالصداقة كتعريـف لهذه العلاقـة، في زيـارة ليحيـي لمركـز تعليم اللغـة العربيـة الذي أعمل به، دخل إلـى حجرتي في ذلك اليـوم رئيس المركز وهو شـيخ هرب من الاضطهـاد في بلدتـه الأم وجاء معـه رجل أخر فقـام يحيي للسـلام عليـه فالتفت رئيـس المركـز إلـى الرجل معرفـاً يحيـي: هذا هـو الدكتـور يحيـي وزوجتـه الدكتـورة أميـرة تـدرس الدكتـوراة في جامعة....

تحدث يحيي في بط ء قائلا: أميرة ليست زوجتي.....

أطرقت أنا فـي خجل فتطلـع إلينا الشـيخ الكبير ثم تحـدث قائلا: أنا أسـف حسـبتكما زوجـان ولكن لا مشـكلة ربمـا تكون بشـرة خير أليس كذلك؟

ابتسم يحيي ولم يعقب عليه وكذلك فعلت أنا.

تكـرر هـذا الموقـف ولكـن بصـورة مغايـرة عندمـا دعانـي يحيي لحضور عشـاء معه وعدة أطبـاء بريطانيين، طبيبة تدعـي أيمي وطبيب يدعـي جميـس وتحدثنـا فـي عـدة مواضيـع منهـا الإسـلام فوبيـا والإرهاب والجالية العربية فـي بريطانيا عندمـا تحدثت عن الأحزاب التي لا ترحـب بالجاليـة العربية وتحـاول أن تثير المجتمـع البريطاني حولها.

قالت أيمي: أن هـذه الاحزاب لا ترحب بأي جالية من أي جنسـية آخري علي اعتبار أنها تأخد فرص عمل البريطانيين.

قلـت: لا يجب أن يكـون في البرلمـان البريطاني أحـزاب عنصرية من عينة الحزب الوطني البريطاني.

- ألا يشفع له أنه الحزب الوحيد الذي يقف ضد الصهيونية؟

- لا زال هـذا الحزب عنصري ولـن يغير هذا من معاملتـه للجالية العربية.

ابتسـمت أيمي والتفتـت إلى يحيـي قائلـة: خليلتك ماهـرة جدا يا يحيي!!

قال يحيي في سرعة: فقط صديقتي.

اظهرت أيمي علامات الدهشة علي وجهها قائلة: صديقة فقط؟

أطرقت صامتة كما فعلت في المرة الأولي ولم أعط اهتماماً بما حدث.

***

كانت السنة الأولي قد قاربت على الانتهاء، شهوري الأخيرة لا تقارن بشهوري الأولى، رغم الدوام الجزئي لعملي كمترجمة إلا أني لم أهمل في دراستي، كنت أنجر في وقت قصير ما كان يستلزم وقتًا أطول عندما كنت وحدي

كنت في غاية السعادة والحماس ولكني لم أتوقف لأسأل نفسي لماذا كنت أشعر بذلك؟

مواجهتنا لأنفسنا بالحقيقة ستستلزم أخذ موقف معين منها وهو ما لم يكن لدي الشجاعة الكافية لأفعله آنذاك.

عندما عدت إلى مصر في أول إجازة وكان لدي كل ما يلزم لأكون في غاية السعادة، فأسرتي بجانبي، بعيدة عن غربة قاسية لا ترحم، وظروف صعبة فرضت عليّ فرضاً، ولكني افتقدت لندن وكأني تركت جزءًا غاليًا مني هناك.

لم أعرف ما كان ينقصني، لكني كنت في غاية السعادة عندما يحدثني يحيى من لندن، لم اهتم بتفسير هذا الشعور كما لم اهتم

بتفسير ما قبله، كنت أقول لنفسي إن لندن الآن هي مرادفة لنجاحي وهذا ما أفتقده، ولكني أدرك الآن أني افتقدت يحيى وهو المرادف لسعادتي وليست لندن في حد ذاتها.

رجعت إلى لندن بعد انتهاء الإجازة ورجعت إلى عملي ودراستي وعلاقتي بيحيى حتى جاء ذلك اليوم الذي وضعني ويحيى في المواجهة لحقيقة علاقتنا التي لم نستطع الهرب منها.

كان زفاف زميلة يحيى في المستشفي الطبيبة «إيمي» وقد دعتني إلى حفل الزفاف، ارتديت فستان سهرة مغلق ورفعت شعري بتسريحة شعر بسيطة ووضعت قليلا من الكحل وأحمر الشفاه وتطلعت إلى نفسي في المرآة وتساءلت كيف سيراني يحيى؟

جاء يحيى لاصطحابي وتسمر واقفا عندما رآني ثم قال مبتسما: تبدين رائعة !!

قالها بالانجليزية كعادته دائما إذا قال شيئا بدون تفكير، ابتسمت وسرت نحو سيارته واتجهنا إلى مكان الزفاف.

هناك احتضنت إيمي التي قالت: تبدين رائعة يا عزيرتي، أليس كذلك يا يحيى؟

ابتسم يحيى ولم يعقب، جلسنا وبدأت مراسم الزفاف وعندما بدأ القس في إجراءات الزواج لاحظت إيمي، كانت تبدو في غاية السعادة وأجابت على سؤال هل تقبلين بتوماس زوجاً شرعيا بسرعة قائلة: نعم نعم أقبل !!

للحظة تخيلت نفسي بالفستان الأبيض وبجانبي يحيى، التفتُّ له وجدته ينظر إلى العروسين ساهماً، بعد انتهاء الزفاف ركبت بجواره ليوصلني لمنزلي.

صمت مدة ثم تحدث قائلا: هل تعرفين ما أود عمله الليلة؟

- ماذا؟!

- أن أرسمك بهذا الفستان.

- لم أكن أعرف أنك ترسم !!

- لقد رسمت لك عدة رسوم من ذاكرتي ومن صورك.

تطلعت له بدهشة وقلت في مرح طفولي: ولماذا لم تجعلني أراها من قبل؟

التفت إليّ مبتسما وقال: يمكنك أن تريها الآن ونبدأ في الرسم الجديد، ما رأيك؟

لم أفكر لدقيقة وقلت: حسناً.

وصلنا شقته، الشقة كانت بسيطة وأنيقة، أثاثها حديث وبسيط لم يجفل وضع عدة لوحات صغيرة غاية في الجمال.

- شقتك أنيقة !!

- هل أعجبتك؟

أجبته باشارة من رأسي، تحرك قائلاً: هل أعد لك شرابًا ساخنًا، تفضلي سوف أجلب لك الرسوم.

تحـرك إلـى داخل الشـقة، وتوجهـت أنـا إلـى النافـدة، كان يحيى يسـكن فـي الطابق الثانـي، نظـرت مـن النافذة نفـس المنظر لشـوارع لندن الهادئـة، المباني السـكنية التي لا يزيـد ارتفاعها عـن طابقين مع المساحة اللازمة للون الأخضر في كل الأحياء.

غـاب يحيى لعـدة دقائـق ثم جـاء جالبا لـي الرسـوم بعـد أن خلع سـترته وفك رباطة عنقـه قليلا، أعطاني عدة رسـوم لي مرسـومة كلها بالقلم الرصاص كانت تبـدو جميلة جدا فالتفتت إليه مبتسـمة وقلت: إنها جميلة جدا

- هل أعجبتك؟

- ولكنك ترسمني جميلة جدا، أنا لست بهذا الجمال !!

- إنك أجمل امرأة رأيتها في حياتي يا أميرة.

تطلعـت إليـه فـي دهشـة ولـم أعقـب اقتـرب منـي وبدأ فـي حل خصلات شعري قائلاً: سيبدو أجمل في الرسـم هكذا، زاد في اقترابه حتى أحسست بأنفاسه تلفح وجهي فابتعدت قائلة: لا أستطيع.

ثم بدأت فـي التحرك في اتجاه الباب، أمسـك بيـدي وضغطها في رفق قائلاً: ابقي....

حررت يدي منه مرددة: لا أستطيع.

وقعت مني الرسـوم وسـرت عليها وأنـا في طريقي للبـاب وجري يحيى ورائي قائلا: أميرة انتظري سأوصلك لمنزلك..

قلت في سرعة: لا يا يحيى لا أريدك أن توصلني.

- ولكن يا اميرة.....

قاطعته في رجاء: يحيى أرجوك اتركني.

نزلت درجات السلم بسرعة وكأن شياطين الدنيا تجري ورائي كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة أخذت سيارة أجرة وحاولت أن أهدئ نفسي وأوقف من ارتعاش جسمي، صعدت إلى بيتي بسرعة وأغلقت الباب خلفي وجلست أبكي كما لم أبكِ في حياتي من قبل.

***

حاول يحيي الاتصال بعد ما حدث عدة مرات ولكني لم أجبه، كنت لأول مرة أري أبعاد علاقتي به، بعث لي برسالة صوتية قائلا: «أميرة أنا أسف علي ما حدث، يمكننا أن نعود إلى سابق علاقتنا قبل ذلك اليوم وإسقاط ما حدث من الذاكرة».

رفعت رأسي مصدومة وأنا استمع إلى كلمته وتساءلت بتلك البساطة يطلب إسقاط ما حدث من الذاكرة؟ آه يا يحيي، أنا لا أستطيع أن أعود إلى سابق علاقتي بك، أعرف الآن حقيقة ما كنت أشعر به، فأنت الجزء الغالي الذي تركته في لندن يناديني نحو الغربة وأنا في وسط أهلي.

العلاقة غير واضحة المعالم التي حاولنا تفسيرها لكل من حولنا بأنها صداقة والكل أنكرها، ربما كانوا يرون حقيقة ما

نحـاول إخفـاءه، لا أسـتطيع يـا يحيـي إلا الاعتـراف بحبـي لـك وحاجتـي اليـك في ضـوء مـا تحاول أنـت وضعـه في ضـوء علاقة صداقة لا يتعداها.

ولكن هـل تضمـن لـي مسـتقبلا ألا يتعداهـا؟ أم أن مقاومتي فقط هي التي ستنهار مستقبلا، لا أستطيع يا يحيي، لا أستطيع.

انقطعت عـن الـرد علـي مكالمتـه والذهاب لشـارع العـرب حتى لا أراه ولـو صدفـة هنـاك، ربمـا لـم يكـن لهـذه العلاقـة أن تبـدأ من الأسـاس ماذا كنت أتوقـع أن تكـون نهايتها وربمـا كان من السـذاجة أو الجبـن الإدعـاء لهذا الوقـت الطويل أن تلـك العلاقـة كانت علاقة صداقة فقط.

الآن يجـب علـي التركيـز علي مـا جئت للنـدن من أجله، سـأضع كامل طاقتـي في الدراسـة، أنـا لسـت مراهقة صغيـرة سـتقف حياتها علي قصة حب فاشـلة، سـأفعل بالضبط مـا فعلته عند فسـخ خطوبتي من كريم، سأشـغل وقتـي وتفكيـري بدراسـتي حتى يمكني السـقوط نائمة ليـلاً، حياتـي الآن في لنـدن امتلأت بأصدقـاء كثيريـن بريطانين وعرب، مع وجـود عملي أيضا لـن يتـرك كل هذا المجال فسـحة من الوقت أو الانشغال بمشاكل شخصية.

لكن لمـاذا أصبحت أري لنـدن كئيبة وخالية مـن أي جمال؟ لماذا جو لنـدن غائم وممطر بصـورة مزعجة؟ لمـاذا أعاني من شـعور قاتل بالوحـدة والحنين إلـى مصر؟ لمـاذا أصبحـت اتجنـب أي تجمعات

وإذا ذهبت أشعر بوحدة قاتلة وأنا في وسط الناس، أصبحت أعاني من غربة مضاعفة أصعب من شهوري الأولي في لندن، أري خطتي في نسيان يحيي تبوء بالفشل.

لم تكن غربتي بهذا السوء عندما قابلت يحيي، كانت صعبة ولكن محتملة عكس ما أعانيه الآن، وكأني أتعرض لأعراض انسحاب مادة مخدرة.

يدخل بعض الأشخاص إلى حياتنا ليعطونا إحساسا زائفا بالسعادة حتى إذا انسحبوا من حياتنا فإنها يجعلوا الحياة التي كنا نحياها من قبلهم مستحيلة ونجد صعوبة بالغة في استعادتها.

أخوض وحدي الآن واحدة من أصعب فترات حياتي لا أستطيع التركيز في عمل أو دراسة، المحاضرات التي أدفع نفسي دفعا لحضورها لا أفهم منها شيئا التجارب المعملية التي أقضي عدة أيام في التحضير لها أفسدها بقلة تركيزي.

لماذا يا يحيي تصر علي أنها علاقة صداقة فقط؟ هل من الممكن أن يكون شعوري خاطئاً إلى تلك الدرجة؟ لماذا أشعر أنك تبادلني نفس مشاعر الحب إن لم تكن تزيد عنها؟

هل من أجل تجربة طلاقك؟ هل هو حظي العثر أن ظهرت في حياتك بعد تلك البريطانية التي كنت تقول أن طلاقك منها كلفك مادياً ومعنوياً؟

وهل كنت لا استحق طلب سريع للزواج كما فعلت معها؟ كنت تقول لي أنها كانت تشعر بدهشة بالغة من هذا الطلب السريع في مدة تعارف لا تزيد عن شهرين.

كيف لم تجد أني أتوقع طلب مماثل؟ وعندما لم أجده رضيت في وجودك في حياتي بصورة صديق، متجنبة مواجهة نفسي بالحقيقة، كيف لم تعرف الفرق بيني وبينها؟وهل توقعت أني سآتي بعد عدة سنوات مثلها لأخبرك أني لا أجد مستقبلا لنا معاً؟ متي ستعرف يا يحيي وهل سيكون هذا قبل فوات الأوان؟

***

مر أكثرمن ثلاثة أشهر علي آخر مرة رأيت فيها يحيي، وطوال هذه الفترة لم أسمع فيها صوته سوي بتلك الرسالة الصوتية ولم أراه ولو من قبيل الصدفة، توقف فيها يحيي عن مهاتفتي بعد فترة من انقطاعي الرد عن مكالمته، كنت علي أعتاب الجنون حرفياً، هذا إلى جانب ما كنت أفعله من تدمير لمستقبلي بنفسي.

أحياناً لا نحتاج لظروف خارجية لفشلنا نفعلها نحن بأنفسنا بمنتهي الجدية والتفاني.

لم أدر بنفسي سوي وأنا خارجة من المنزل متجهة للمستشفي التي يعمل بها يحيي، توجهت للاستقبال وسألت أحدي الممرضات

عليه، رفعت سماعة التليفون وضغطت أزراره وسألت عليه ثم قالت: دكتور يحيي غير موجود.

خرجت من المستشفي مسرعة وحمدت الله علي عدم وجوده، ما الذي أفعله؟ ماذا كنت سأقوله له؟ هل كنت سأقول أني أحبه ولا احتمل تعريف علاقتنا علي أنها صداقة؟ هل كنت سأرجوه أن نتزوج أم كانت ستنهار مقاومتي بمجرد أن أراه تاركة له اختيار شكل العلاقة التي يحب أن نكون بها معا؟ ماذا أفعل بنفسي؟

سوف ابدأ بحزم حقائبي لن أستطيع أن أكمل يوم آخر في لندن رغم أن رجوعي في هذا التوقيت يثبت فشلي الذي لا أستطيع تبريره، لم يكن نجاحي هنا خيارا كما لم يكن الفشل موجوداً في قاموسي، هل يمكني وضع الغربة كتبرير للفشل؟، أظن إنها ستكون حجة قوية في دفاعي عن نفسي أمام أهلي، ولكن ماذا عن السبب الحقيقي وراء هذا الهروب الذي سأظل أحتفظ به لنفسي ولن أستطيع الإعلان عنه؟ هل سأستطيع أن أنسي؟ يقولون أن الزمن كفيل بمداواة كل الجروح وهو ما لم أستطع فعله هنا في لندن فهل سأتمكن من فعله في مصر؟.

لماذا علينا معشر النساء الاختيار بين نوعين من الرجال لا ثالث لهما، نوع يطالبنا بالتخلي عن أحلامنا ونوع يطالبنا بالتخلي عن مبادئنا.

جلست أمام حاسبي النقال وفتحته لأحدث أبي، تطلع لي مبتسماً، حاولت رسم ابتسامة علي وجهي قائلة: افتقدك يا أبي.

تطلع إلى صامتا ثم قال: أميرة ماذا بك؟

– مرهقة من الدراسة والعمل ولكني بخير.

قال في عدم تصديق: أميرة؟

– صدقني يا أبي لا يوجد شي ء أخر.

تطلعت إلى تذكـرة السـفر الملقاة علـي منضدة أمامي لا يسـتطيع هو رؤيتهـا، لم أسـأل عمـا سـيحدث للمنحـة بعـد سـفري المفاجئ لمصـر، مـاذا سيسـتفيد مـن سـيتعرض للشـنق معرفـة تفاصيـل تلك العميلـة لحظة بلحظة؟، لا أعـرف هل يجب أن أفاتح أبـي في قراراي لترك المنحـة والرجوع إلى مصـر أم أتركه لهذه المفاجأة غير السـارة، أظن أنه يسـتحق مني نوع مـن التمهيد، هذا الرجل راهـن علي بكل ما يملك بمالـه وثقته ودعمه المسـتمر وماذا أعطيه في النهاية؟ لا شـي ء سوي فشلي الذريع

قلت فـي النهاية بلهجـة حاولـت أن تظهـر طبيعيـة: أنا أشـعر أني متعبة جداَ من غربتي لدرجة التفكير في الرجوع إلى مصر.

– أميرة التي أعرفها لا تهزمها الصعاب.

هزمتهـا الصعـاب يا أبـي، الحب يجعلنـا أغبيـاء وضعفاء يـا ليتني أسـتطيع أن أبـوح لك بمـا في صـدري، ولكني أخـاف الا تـري أميرة التـي ربيتهـا وأعطيتهـا ثقتك وهـي أغلـي ما أخذتـه منك، أخـاف الأ تراني أسـتحق تلك الثقة الغاليـة، التضحية بمنحة هنا في لندن أسـهل

علي من خون ثقتك فيَّ.

ابتسمت قائلة في النهاية: طبعا يا أبي ربما من التعب فقط أقول ذلك

***

انتهيت من حزم حقائبي بقي لدي أقل من ثلاث ساعات علي موعد الطائرة تطلعت إلى الشقة، سيكون لدي ما تبقي من عمري للتفكير والندم علي هذا القرار، وجدت طرقا علي باب شقتي، نظرت عبرعدسة الباب كان يحيي، لم أعرف ماذا أفعل ربما يجب فقط علي ادعاء عدم وجودي في الشقة، ولكني وجدت إصراره علي الطرق ثم بدأ في التحدث قائلاً: أميرة أعرف أنك بالداخل، افتحي!

لم أعقب فطرق الباب مرة آخري فتحدثت أخيرا قائلة: يحيي لا يوجد ما نتكلم عنه، أرجوك غادر.

- أفتحي يا أميرة، أرجوك.

- يحيي، أرجوك غادر لا يوجد ما يمكنا التحدث فيه

- وهل هذا ما كنت تودين قوله عندما جئت للمستشفي؟

غضضت شفتاي لقد عرف بأمر ذهابي للمستشفي ماذا أفعل الآن، فتحت الباب في النهاية، وتطلعت اليه صامتة فابستم وقال: هل تتزوجيني؟

تطلعت له في دهشة قائلة: ماذا؟

كررها علي مسامعي: هل تتزوجيني؟

بـدأت عينـاي تترقـرق بالدموع وقلـت: لمـاذا الآن؟ لقـد حزمت حقائبي وبقي علي طائرتي أقل من ثلاث ساعات !!؟

- لقـد عرفـت بأمـر سـفرك مـن المركـز، ثـلاث أشـهر كافيـة للتفكيرفي علاقتنا مع عقابك لي بامتناعك عن رؤيتي.

تطلعـت اليه صامتة ولم أسـتطع منـي دموعي فرفع أصبعه ومسـح بها برقة دموعي قائلة: أنا أسـف حبيبتي، أنه خطأي أنـا كنت يجب أن أعجل بهذا الطلب.

ثم أمسك يميني وألبسـني خاتم، رفعت يدي وتطلعت إلى الخاتم الجميـل و مـا بيـن دموعي تسـائلت: هـل يمكـن أن تتحقـق الأحلام بهذه السهولة؟

***

تطلعـت إلـى الخاتـم فـي يـدي، مر شـهر علـي طلـب يحيي الزواج منـي، أشـعر بالقلق أن يطلـب يحيي إتمام الـزواج في السـفارة، في هـذه الحالة لـن يسـتغرق زواجنا أربع وعشـرون سـاعة ولكنـي لا يمكني الإقـدام علي هذه الخطـوة بدون معرفـة أبي وبدون أن يكون وكيلي في العقد كيف سـتكون فرحتي إذا لم يشـاركني تلك اللحظة، هل يجـب أن أحضر نفسـي لنقاش محتمل مـع يحيي أصوغ

به أسبابي التي تمنعني من الزواج في لندن وتلزمنا بانتظار العطلة الصيفية حتى يتمكن يحيي من النزول لمصر وطلب يدي من أبي كما تقتضي أصول الزواج.

في تلك اللحظة رن هاتفي الجوال ولمحت اسم يحيي عليه وجأني صوته قائلاً في مرح: هل حادثتي والدك اليوم؟

- لا، لماذا تسأل؟

- لقد حضرت لك مفاجأة، عندما تحدثيه هاتفيني.

- يحيي انتظر ماذا فعلت؟

ولكنه انهي المكالمة تاركني في حالة من القلق لا يمكن وصفها، بعدها بنصف ساعة كان موعد حديثي مع أبي، فتحت حاسبي النقال وتطلعت اليه محاولة رسم ة ابتسامة علي وجهي تطلع إلى أبي، أظنه لاحظ قلقي، ثم تحدث أخيرا قائلا: أميرة هل تعرفين طبيب في لندن يدعي يحيي؟

تطلعت إليه لحظات في صدمة وتساءلت في سري عما فعله يحيي، ثم تحدثت قائلة: نعم كنت قد مرضت وقابلته في أحدي المستشفيات في لندن، ثم قابلته في شارع العرب فيما بعد وهو الذي وفر لي وظيفة المترجمة، لقد ذكرت لك أن أحد المصريين قد ساعدني في الحصول علي هذه الوظيفة.

- نعم أتذكر موضوع الوظيفة ولكن لم تذكري لي حكاية مرضك.

- لم أرد قلقك، كانت اعاني من الارهاق ليس الإ.

اخيـرا أنـارت وجـه ابتسـامة مذهلة وهـو يقول: لقـد قابلـت أهله الذين جـاؤا لخطبتك منـي وتحدثـت معه هو شـخصياً، هـو يبدو لي شاب جيد وقد أجلت موافقتي حتى اسألك.

تطلعت إلـى أبي في دهشـة بالغـة فقال في سـعادة: هـل يعني هذا موافقتك؟

ابتسـمت ورددت عليـه بإشـارة مـن رأسـي محاولـة كتـم دموعي فأكمل: مبـارك يـا حبيبتي، يحيـي قال أنـه سـيدبر لنزولكـم مصر في أقرب فرصة لإجراء كتب الكتاب.

هاتفت يحيي وقلت في سرعة: كيف فعلت ذلك؟

- فعلت ماذا؟

- إقناع أهلك بالتقدم لفتاة لم يروها ولن يروها حتى نزولنا مصر؟

- الأمر بسـيط حبيبتـي، فأنا ذلـك المطلـق الوحيد بدون أسـرة أو أطفال وعلي أعتـاب الأربعين، أطلب من أهلي التقـدم لخبطة فتاة من مصر بعد اضرابي عن الـزواج منذ طلاقي واعداً إياهـم بالنزول لمصر في أقـرب وقـت إذا وافق أهلهـا علـي الـزواج، الأمر ليـس بالصعب أبدا، ما كان يقلقني هـو حديثي مع والـدك والحمد لله قـد وافق علي الزواج، ما يتبقي لنا فعله الآن هو الإعداد لنزولنا لمصر.....

***

انتظرنا عدة أسابيع حتى ترتيب نزولنا إلى مصر في الإجازة الأسبوعية في لندن، معني ذلك أنه كان أمامنا السبت والأحد للنزول لمصر وإتمام الزواج والعودة إلى لندن مرة أخري غادرنا لندن في الساعات الأولي من صباح السبت ولم نحزم حقائب كبيرة فقط ما يمكن أن نحتاجه لمدة يومين، وعندما وصلنا إلى مطار الإسكندرية وجدنا العائلتين في إنتظارنا سوياً، عانقتني والدة يحيي بحب رغم أنها المرة الأولي التي تراني فيها، وكذلك شعرت بحرارة مقابلة أبي ليحيي، كان يسود هذا اللقاء كثير من الحب والتقدير علي الرغم من غرابته.

عندما وصلت لمنزلي كان الوقت عصرا دخلت لأنام من طول الرحلة وتركت لأهلي الإعداد لكتب الكتاب، في اليوم التالي كان البيت مجهزاً لذلك الحفل الصغير، سافر يحيي مع أسرته إلى السويس بلدته الأم بعد خروجه من المطار، ثم جاء في صبيحة اليوم التالي مع عائلته لمنزلي، ارتدي يحيي نفس البدلة التي ارتدها في زفاف أيمي وعلي غير اتفاق بيننا ارتديت نفس الفستان الذي ذهبت به إلى هذا الزفاف ولكني تركت شعري مسدلاً كما يحبه يحيي، لم يكن لدي وقت لشراء أو تأجير فستان زفاف ولكني لمحت إبتسامته لحظة رؤيتي.

كان الحفل صغير بالفعل، حضره العائلتين فقط وعدد صغير جدا مع المعارف، علقنا بعض الأنوار الملونة داخل المنزل وكانت الأغاني تأتي من جهاز الحاسوب وتولي أخي عملية التصوير من بداية الحفل

وعندما جاء المـأذون وبدأ فـي تهدئة الجميع وطلـب منهم الدعاء لنا بـ«بـارك اللهم لكمـا وبارك عليكمـا وجمع بينكم فـي خير»، تطلع يحيي إلى مبتسـماً وهو يجلس بجانب والده، ابتسـمت له والتفت إلى والـدي الجالـس بجـواري وهو يقـول ما يطلـب منـه المـأذون قوله، دقائق وصرنا أنا ويحيي زوجين أمام الله وأمام الناس.

ارتفعت أصـوات الزغاريد، البسـني يحيي الخاتم الـذي كان اهداه لي في لندن والبسـته دبلة فضيـة، وكان علينـا التحرك بسـرعة فلم يبقِ سـوي أربع سـاعات علي موعـد طائرتنـا إلى لنـدن دخلـت لحجرتي لتبديـل ملابسـي وحـزم حقيبتي، جـاء يحيـي بحقيبتـه جاهـزة وخلع سـترته ورابطة عنقه ووضعهم في الحقيبة وهكذا أتم اسـتعداده، جرينا إلى داخل السيارة ولحقت بنا سيارة آخري تضم باقي العائلتين.

كنت قد بـدأت فـي الشـعور بالقلق لاقتـراب ميعـاد الطائـرة، بعد حوالي القيـادة لمدة تزيد عن السـاعة ونص السـاعة نزلنا من السـيارة وأمسـك يحيـي بالحقيبتـن وسـلمنا علـي الموجوديـن معنـا بسـرعة وجرينا لنصل لصالة الدخول، اسـتطعنا الوصول في الوقت المناسب واللحـاق بالطائـرة، جلسـت بجانبه فـي الطائرة أمسـك بيـدي لحظة إقـلاع الطائـرة بينمـا كان يجيـب علـي سـؤال مـن راكب فـي الصف المقابـل، لا أذكر ذكـري ليحيي قلقي مـن لحظة الإقـلاع، نظرت إلى سـماء مصر وأنا اتشـبث بيده، أعـرف أن أمامنا طريقًا طويـلاً في لندن ربمـا مزيد مـن الصعوبات والمشـاكل فـي بـلاد الغربة ولكنـي كانت تملؤني الثقة والأمل في عبور تلك الصعاب ما دمنا معاً.

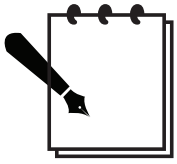

زهرات الحياة

طرقت السيدة الخمسينية الباب بطرقتين متتاليتين ثم أسرعت إلى الحجرة وقالت للسيدة الجالسة علي مكتبها: دكتورة مها، الصحفية في انتظارك بالخارج.

رفعت مها رأسها وقالت مبتسمة: أدخليها يا إبتسام.

كانت ابتسام ذات بشرة سمراء وملامح هادئة ترتدي ملابس فضفاضة داكنة، خرجت لتصطحب الصحفية إلى داخل الحجرة.

قامت مها لتصافح الصحفية بود وتشير لها لتجلس علي الكرسي المجاور للمكتب.

فتحدثت الصحفية: في البداية أود شكرك علي إتاحة الفرصة لي باجراء هذا الحديث الصحفي، فأنا أعرف ضيق وقتك.

ابتسمت مها قائلة: لا يوجد مشكلة.

– دكتـورة مها، هـل يمكنـك فـي البدايـة أن تعرفينا بنفسـك، قبل التعرف علي أنشطة الجمعية؟

– لا أسـتطيع التحـدث كثيـراً عـن نفسـي فـي الواقـع ثـم صمتت لحظـات وقالـت: أنـا مهـا الوكيـل، أسـتاذ لعلـم الإجتمـاع بجامعـة الإسكندرية ورئيس جمعية زهرات الحياة.

ابتسـمت الصحفية وهي تقـول: يمكننا اسـتنتاج تواضـع الدكتورة مها من هذا التعريف المختصر.....

– أنا لا أجد ما يمكني إضافته علي ما قلته.....

– إذن يمكنا البدء بالتعرف علي الجمعية...

مها فـي حماسـة: جمعيـة زهـرات الحيـاة تـم إنشـائها عـام 2005 وصاحب الفكرة والؤسسـة لها هي الدكتورة خديجة صبري (يرحمها الله)، كانت سـيدة قوية لـم توقفها المصاعـب في البدايـات التي كان من الممكـن أن تحول دون إنشـائها، وقد تولت رئاسـتها حتـى وافتها المنية عام 2010.

– ما هي أبرز أنشطة الجمعية؟

– الجمعية ليسـت جمعيـة خيرية بالمعنـي المعروف بـل للجمعية دور تثقيفـي مجتمعـي، ربمـا أبرز أنشـطة الجمعيـة هي القوافـل التي تجـوب كل محافظات مصـر للتوعية ضد زواج القاصرات والتسـرب من التعليم والعنف الأسري.

– وهل كان لهذه القوافل رد الفعل المتوقع منها؟

– تغيير ثقافة مجتمع يستلزم وقتاً، ولكن أنشطة الجمعية تتسع وسنفتتح الفرع الثاني لها في قرية الحوميداية وهو أكبر قرية من قري مصر في نسبة زواج القاصرات.

– دكتورة مها، لقد تحدثتي عن أبرز أنشطة الجمعية، هل هناك أنشطة آخري للجمعية لم يتم ذكرها؟

– للجمعية أنشطة عديدة أخري، محو أمية للفتيات، تعليم الخياطة وأشغال فنية أخري وهنا في الجمعية يوجد مشغل للفتيات يمكنك زياته بعد اللقاء الصحفي، الجمعية توفر المساعدة القانونية والإرشاد النفسي لضحايا العنف الأسري والاستغلال الجسدي

– هذه أنشطة متعددة للجمعية وهو تقودنا لسؤال عن مصادر تمويل الجمعية التي ترعي كل هذه الأنشطة؟

مها في ضيق وقد أزعجها السؤال: الجمعية لها معرض مستمر لأعمال مشغل الفتيات والجمعية تفتح باب للتبرعات كأي جمعية أهلية.

في هذه اللحظة رن جرس التليفون الموضوع علي المكتب فرفعت مها السماعة وهي تقول للصحفية: فقط دقيقة.

جاءها صوت إبتسام قائلة: مهندس مصطفى بالخارج يا دكتور، أجابتها مها: أدخليه يا ابتسام.

دخل رجل أربعيني العمر يظهر ذلك علي بعد الشعيرات البيضاء علي جانبي شعره، طويل القامة له ملامح دقيقة وعينان سوداوان عميقتان يخفيهما خلف نظارة طبية صغيرة توقف لحظة أمام مكتب مها ثم توجه إلى كنبة في ركن آخر في الغرفة، تطلعت له الصحفية لحظات ثم التفتت إلى مها في حرج قائلة: شكراً لك يا دكتور مها، هل يمكن أن التقط صور لأنشطة الجمعية؟

مها وقد اجتهدت لترسم ابتسامة علي وجهها: طبعاً يمكن لابتسام اصطحابك بجولة في الجمعية.....

قامت الصحفية وصافحت مهامكررة عبارات الشكر، تحركت مها في اتجاه مصطفى وجلست في مواجهته ثم قالت وكأنها تعترف له: افتقدتك !!

ابتسم مصطفى قائلاً: حديث صحفي آخر!!

قالت في ضجر: نعم يريدون معرفة من أين نأتي بالأموال وكيف نصرفها؟

أخرج من جيبه جهاز تحكم عن بعد لسيارة ولوح به ضاحكاً: قولي لهم اشتريت سيارة جديدة.

أمسكت بالجهاز في فرح قائلة: أخيرا أصلحوها وسأرحم من عذاب المواصلات، ثم ضعطت علي يده قائلة: لا أعرف كيف يمكني شكرك؟!

تحرك قائلاً: اشكريني عندما نعود للبيت، لقد مت جوعاً !

تطلعت له مبتسمة، فقال في مرح: مها هيا بنا، ماذا ننتظر؟

ابتسمت وهي تأخذ حقيبتها وفي قرارة نفسها كانت تتسائل: هل يمكنها أن تحب هذا الرجل أكثر مما تفعل؟!

***

تطلعت مها إلى المذيعة التي جلست تتحدث مع المخرج علي بعد عدة أمتار منها ثم أخرجت هاتفها المحمول وضغطت أزراره في سرعة فجاءها صوت مصطفى قائلاً: حبيبتى!

ابتسمت وهى تقول: هل عدت للمنزل؟

- وانتظرك أمام التلفزيون، كيف تشعرين؟

قالت في سرعة وهي تحاول اخفاء اضطرابها: قلقة ومتوترة!!

جاءها صوته مطمئناً: إنه ليس أول لقاء تلفزيوني!!

مها في وجوم:أنت تعرف مدي اختلافه.

سمعت صوت المذيعة في هذه اللحظة فالتفتت لها فأشارت المذيعة مبتسمة لساعة يدها فابتسمت مها في حرج وقالت وهي تنهي المكالمة: سوف أحدثك عندما انتهي. ادعو لي.

جلست مها أمام المذيعة ذات الشعر الأصفر المصبوغ وجلس أمامهم رجل في الأربعينات من عمره له لحية متوسطة الطول

ويرتـدي حلـة ذات لـون أزرق داكـن لـم يلقـي التحية وظهـر متجهم الوجـه فبـدأت المذيعـة فـي التحـدث وهـي تقرأمـن أوراق أمامهـا: سـأراجع فقط في البدايـة بياناتكم: دكتورة مها أسـتاذ علـم الاجتماع جامعة الإسـكندرية وأسـتاذ أشـرف عبد التـواب المتحدث الرسـمي لحـزب الخيـر والإصـلاح، أومـأ كل منهمـا برأسـه وجـاء صـوت المخرج خمس دقائق وسيبدأ البث المباشر.

تطلعـت مها إلى إحـدي الشاشـات التي تذيـع مقدمـة البرنامج ثم أشـار المخرج للمذيعة بإشـارة البدء فتحدثـت في لباقة: مسـاء الخير أعزائي المشـاهدين حلقة جديـدة من برنامجكم «وجهـات نظر»، بعد الاقتراح الأخيـر لتعديل قانون رقـم 126 للطفل لعـام 2008 الذي يمنع زواج القاصرات تحت سـن 18 سـنة كان هنـاك مؤيد ومعـارض لهذا الاقتـراح ولهـذا معنا في هـذه الحلقـة وجهتـي نظر للعـرض عليكم، معنـا اليـوم دكتـورة مهـا الوكيـل أسـتاذ لعلـم الاجتمـاع بجامعـة الإسـكندرية ورئيس جمعية زهـرات الحيـاة والتفتت لهـا قائلة: أهلا بكِ معنـا اليوم في برنامج وجهـات نظر ثم التفتت إلـى الضيف الآخر ومعنـا اليـوم أيضـا: أسـتاذ أشـرف عبـد التـواب المتحدث الرسـمي لحزب الخيـر والإصلاح الإسـلامي وعضو مجلس الشـعب، نرحب بك معنا في برنامج وجهات نظر، ابتسم أشرف وهو يومئ برأسه.

التفتـت المذيعة لمهـا قائلة: دكتور مها سـوف نبدأ برأيـك في هذا الاقتراح.

مها في هدوء: اقتراح تعديل القانون قرار خاطيء، مع الأضرار النفسية والجسدية التي تنتج عن زواج القاصرات، كان من المفترض سن قوانين أشد علي من يخالف قانون 126 لسنة 2008 والمتلاعبين به وليس تخفيض سن زواج الفتيات.

ابتسمت المذيعة ثم التفتت إلى أشرف قائلة: ورأي حضرتك؟

بدأ أشرف في التحدث متأهباً: بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم وبعد تأثرنا بالمجتمعات الغربية نتج عنه هذه الصورة من القوانين التي تكون ضد الشريعة الإسلامية ولا تستند لأي منطق...

المذيعة في سرعة: حضرتك تري القوانين ضد الشريعة؟

أشرف في سرعة: طبعا ونحن في هذه الحالة نتبع المثال الغربي دون أي اعتبار لشريعتنا الإسلامية وتعاليم ديننا الحنيف، المجتمعى الغربي يمنع زواج القاصرات ولكن لا يمنع العلاقات الجنسية خارج إطار الزوجية لنفس القاصرات.

مها في ضيق: يا أستاذ أشرف ليس هذا هو مقصدنا من تحديد سن لزواج القاصرات، نحن نتحرم تعاليم الإسلام وعادتنا وتقاليدنا ولكننا نحمي فتيات صغار من أخطار نفسية وجسدية لا تتحملها أعمارهم الصغيرة.

أشرف في سرعة: الغريب أن نفس تلك المجتمعات الغربية لا تمنع في قوانينها زواج من هم دون 18 سنة، هناك ست ولايات

بالولايات المتحدة الأمريكيـة تبيح الزواج لمن هن دون الثامنة عشـر عاما منهم ولاية فيرجينا.

المذيعة في سـرعة: دكتور مها إذا كانت بعض الـدول الغربية تبيح هذا الأمر فلماذا نمنعه في مصر؟

مهـا فـي هدوء:للأسـف الوضـع في مصـر صعـب، ارتفاع نسـب الأميـة والمـرض والفقـر يجعـل مـن هـذا القانـون المقتـرح وسـيلة لاستغلال الفتاة وبيعها لأي ثري عربي يدفع فيها بعض الأموال.

التفتت المذيعة لأشرف قائلة: رد حضرتك علي كلام الدكتور؟

أشـرف في هدوء وتمكن: التعميـم عمي، ليس معنـي أن هناك من تسـتغل براءتها من أجـل الأموال أن نمنـع زواج الأخريـات، بناتنا في الريف والصعيد تستطيع تحمل مسـئولية بيت وزوج وهي دون الثامنة عشـر ومنذ عدة سـنوات كان زواج الفتاة وهي في هذه السـن الصغير مقبـول اجتماعياً وقانونيـاً، وأنـا أري أن التضيق علي النـاس ينتج عنه عـدة مشـاكل فلنتـرك القـرار للفتـاة وأهلها فـي تحديـد سـن الزواج المناسب لها.

تطلعت له مهـا مبهوتـة فابتسـمت المذيعة قائلـة: لقـد وصلنا إلى نهايـة حلقـة اليـوم مـن برنامـج وجهـات نظـر أود أن أشـكر ضيوفي دكتورة مها الوكيل أسـتاذ لعلم الاجتماع بجامعة الإسـكندرية ورئيس جمعيـة زهرات الحيـاة وأيضا: أسـتاذ أشـرف عبد التـواب المتحدث الرسمي لحزب الخير والإصلاح الإسلامي وعضو مجلس الشعب.

التزم الضيـوف بأمكانهـم لدقائق ثم بـدأوا في التحرك وابتسـمت مهـا للمذيعـة وهي تتحـرك مبتعـدة ثم سـمعت مهـا صـوت تليفونها المحمول فضغطت أزراره وتنهدت قائلة: مصطفى....

***

طير هـواء العصاري خصـلات من شـعر مها الأسـود الفاحم الذي يصل إلى كتفها، حيث لم يبق من أشـعة الشـمس سوي ما يبعث علي البهجة، وقـد بدت فاتنة بعيناها السـوداوين الواسـعتين والشفاة المكتنزة والأنف الدقيق.

دخل مصطفـى إلـى البلكونة وفـي يديه صينيـة صغيرة بهـا كوبين يخرج منهما البخار السـاخن وضعها علي طاولة صغيـرة والتفت إلى مها السـاهمة وهي تنظـر في اتجـاه الشـارع، فأمسـك بأحـد الكوبين واقترب منها وهمس في أذنها قائلاً: أحبك!!

التفتـت لـه مبتسـمة فأعطاهـا الكـوب وأمسـك بالآخـر وبـدأ في ارتشافه قائلاً: أين كنتِ؟

مها في حزن: كنت أظن أني سـأكون في قمة سـعادتي عند افتتاح الفرع الثاني للجمعية فـي قرية الحوميداية ولكـن صدمتي كانت أكبر، تطلـع لها مصطفـى في صمت فـأكملت: هـل تتصور يـا مصطفى أن تكون الفتاة قد أكملت عمرها التاسـع عشـر ومعه تكون أكملت عشر زيجات لها من الأثرياء العرب، كل زيجة قد لا تكمل أسبوع؟

مصطفى في هدوء: العكس هو ما يجب عليكي الشعور به، وصولك إلى تلك القري النائية وتسليطك الضوء علي مشاكلها سيعمل علي حلها.

- مصطفى أشعر أني أحفر في الرمل ولا أصل لأي نتيجة.

- مها هذه ليست الحقيقة ، أنك في بحثك عن العالم المثالي أول من تظلمين هو نفسك، الجمعية هنا في الإسكندرية أخذت الكثير من الوقت والجهد حتى تؤتي ثمارها، وهذا ما سيحدث للفرع الثاني أو أي فروع سيتم افتتاحها مستقبلاً.

تطلعت له مها ممتنة وقد نجحت ابتسامة في التسلل إلى شفتيها فابتسم هو الآخر وقال: مها هناك فكرة بمليون جنيه، سأسافر بعد أسبوعين بمهمة عمل للبنان، ما رأيك أن نسافر معاً؟

عضت مها شفتيها وهي تقول في حزن: مصطفى لا أستطيع السفر الآن، الجامعة والجمعية لا يمكنني الابتعاد عنهما في الوقت الحالي، ثم قالت في حماسة: ولكن هذا وعد مني أن نسافر معاً المرة القادمة.

ظهر الضيق علي مصطفى ومسح رأسه بيده وهو ينظر إلى الشارع قائلاً: مها أننا لم نأخذ إجازة معاً منذ سنين.

وضعت يدها علي يده قائلة: مصطفى أنا حقاً آسفة، ولكن لا أستطيع الآن، المرة القادمة سنسافر معاً.

سـحب مصطفى يده في سـرعة وهو يقـول ضائقاً: لا أعـرف متي ستكون المرة القادمة؟!

وضـع مصطفـى فـي الكوبيـن علـي الصينيـة وهـم بالتحـرك إلى خـارج البلكونـة فاسـتوقفته مهـا قائلـة: انتظر شـي ء سيسـعدك عيد ميلاد مروان الأسـبوع القادم، سـنذهب معاً اليس كذلك؟ سيتم عامه السادس..

ابتسم مصطفى مجاملاً ثم أكمل تحركه وهو يقول: بالطبع...

وقفت مهـا أمامه وهـي تقول فـي رجـاء: مصطفى لا تفعـل ذلك، أرجـوك لا تشـعرني بالذنـب، لقـد كنت تحـب حضور حفـلات عيد ميلاد مروان.

مصطفى في ضيق: أحبها لحبك لها وحبك لمروان يا مها.

وجمت مها وهـي تنظر له ثـم قالت في حماسـة: ألـن تخرج معي لشراء هدية له؟

تحرك مصطفـى للخارج وهـو يقول: اتصلـي عندما يكـون لديك وقت لشراء هديته.

تابعتـه مهـا حتـى غـاب عـن نظرهـا وتحركـت لسـور البلكونـة وتنهدت في ضيق وهي تتطلع إلى الشارع.

***

تحركت مها إلى خارج حجرتها في الجمعية في نشاط ودخلت إلى مشغل الفتيات وتابعت الفتيات وعملهن، ظهرت السعادة علي الفتيات اللاتي حرصن علي التحدث معها وإظهار عملهن لها، ثم تحركت إلى أحد فصول محو الأمية وتحدثت إلى المدرس وسألته عن أحوال الفتيات وفي هذه اللحظة جاءت ابتسام تجري قائلة: الشرطة هنا يا دكتورة !!

تحركت مها ورائها في ذعر فوجدت أحد الضباط ومعه أمينان شرطة فقالت في فزع: ما الأمر؟

الضابط في هدوء: معي أمر من النيابة بتفتيش الجمعية.

مها وهي تحاول التماسك: لماذا؟

الضابط: والد فتاة من قرية الحواميدية تدعي رشا جبر يتهمك بتحريض ابنته علي الهرب وخطفها.

مها في ضيق: والد هذا الفتاة اقتحم مركز الجمعية في القرية مدعياً أننا نخبأ ابنته داخل المقر وقد حررنا ضده محضر بما حدث، وبالطبع لم تكن الفتاة داخل مقر الجمعية.

الضابط في هدوء: أنا آسف، أنا أطبق القانون فقط.

تطلعت مها له في ضيق ثم قالت: يمكنك بالطبع تفتيش الجمعية نحن لا نخبأ أحد هنا.

بدأ الضابط و أمينا الشرطة بالمرورعلي حجرات الجمعية كلها بما فيها دروات المياه ومكتب مها في الجمعية، ومقارنة وجوه الفتيات الموجودة بالصور الموجودة معهم.

وقفت مها بجانب ابتسام وبجوارهم رجال أمن الجمعية يتابعون ما يحدث في ضيق وألم، ظهر الذعر علي وجوه الفتيات كرر الضابط اعتذاره مرة آخري وهو يغادر الجمعية، مما جعلها تكرر كلامها بتفهم موقفه، لفت نظرها تجمع الناس بالخارج وسؤالهم عن سبب دخول الشرطة إلى داخل الجمعية.

جلست مها علي مكتبها ووضعت يدها مخفية وجهها ثم تحدثت في صعوبة: ابتسام، اذهبي للمدرسات والمدرسين واجعليهم يهدأون الفتيات في الفصول والمشغل.

أومأت ابتسام برأسها وهي تتحرك للخارج قائلة: حاضر يا دكتورة.

حاولت مها تنظيم تنفسها لتتمكن من تهدئة نفسها في محاولة منها لاستيعاب ما حدث، دقائق وسمعت رنين هاتفها ثم جاء صوت محدثها قائلا: دكتورة مها معكي محمد زين الصحفي بجريدة الحياة، هل اقتحمت الشرطة مقر الجمعية نتيجة بلاغ قام به الجيران بقيام الفتيات بأعمال غير أخلاقية داخل مقر الجمعية؟

أغلقت مها هاتفها المحمول في عصبية ثم صابرت علي تمارين التنفس، ثم رفعت سماعة التليفون الموجودة علي المكتب وهي

تقـول: ابتسـام كيف حـال الفتيـات؟ جاءهـا صوت ابتسـام محـاولاً تهدئتها ولكن يظهر عدم صدق كلماته: بخير الحمد لله يا دكتورة.

لم تجد مهـا بداً مـن التحـرك من مكتبهـا والمـرور علـي الفتيات بنفسـها وإن كانـت لـم تسـتطع شـرح سـبب اقتحـام الشـرطة للمقـر فانسـحبت بعدها بدقائق ورجعـت مكتبها وبـدأت في جمـع أورقاها وتحركت إلى خارج المقر.

كانت الشـمس قد غربـت وبـدأ الليل تظهـر آثـاره، تحركت مها نحو سـيارته ثم أشـارت لها بجهاز التحكم عن بعد ولكنها سـمعت فـي هـذه اللحظـة مـن يناديهـا بصـوت خافـت فالتفتـت حولهـا فخرجت من وراء إحـدي الشـجر فتاة يظهـر أنها لم تبلغ العشـرين من عمرها لها عينان واسـعتان سـوداوان وشـعر أسـود ناعـم يظهر جزء منه تحت غطاء الرأس الصغير الذي ترتديـه، ورغم براءة ورقة ملامحها الا أن جسـدها كان يعلـن وداعه لطفولتهـا واقتحامه لعالم النضج والأنوثة.

تطلعت لها مها في ذعر: رشا ماذا تفعلين هنا؟

تحركـت رشـا نحوهـا وكانـت تمسـك بحقيبـة بلاسـتكية صغيرة قائلة: هربت من كتـب الكتاب يا دكتورة، كان أبـي يصر علي تزويجي من الشيخ الذي يبلغ الستين...

مها في قلق: لقد جاءت الشرطة تبحث عنك هنا...

– أعـرف رأيتهـم مـن بعيـد وانتظرتـك هنـا، لا أعرف مـكان أخر أذهب له.

– الهرب ليـس حلا يا رشـا، يجب عليـك العـودة لأهلك ورفض الزواج وأنت معهم.

– لو رجعت سـاتزوج في نفس اليوم لقد قضيت الليلة السـابقة في محطة مصر بين القاطرات.

تطلعلت لهـا مها في صمـت فأكلمت رشـا في رجـاء: أرجوكي يا دكتورة، أنـا لا أعرف أي أحـد هنا فـي الإسـكندرية، والليلة السـابقة كانت مرعبة

تطلعت لها مها ثم قالت في حزم: اركبي السيارة يا رشا.

***

فتحت مها باب الشـقة وتحركت رشـا وراءها إلى الداخل في خجل قلق، جاء مصطفى مسـرعاً وهو يقـول: أخيرا وصلتِ، إلا أنـه توقف عندما لمح رشـا تقف علي مدخل الباب ممسـكة بذلك الكيـس البلاسـتيكي، أدرات مهـا عينهـا بينهمـا ثـم قالـت: اجلسـي يا رشا..

تحركت مهـا بجانبهـا مصطفى إلـى حجـرة نومهمـا وأغلقت هي الباب فـي رفق وراءهـا فقال في سـرعة: لا تقولـي إن هـذه البنت هي سبب ما حدث بالجمعية اليوم...

أومأت مها برأسها وهي تقول: لكن يا مصطفى...

قاطعها مصطفى قائلا في غضب: مها ماذا حدث لكِ؟ كيف يمكنك أن تحضريها إلى هنا؟

مها في رجاء: مصطفى فقط اسمعني، لقد فوجئت بها خارج الجمعية بعد انصراف الشرطة تخبرني أنها قضت ليلتها بين القاطرات في محطة مصر وترجو مساعدتي لأنها لا تعرف أحد في الاسكندرية، ماذا يمكني أن أفعل؟

- بالطبع تصطحبينها معكِ إلى البيت، ألم تفكري بإمكانية تكرار ما حدث في الجمعية لبيتنا، ماذا سيحدث لك وقتها؟ بالطبع ستسجنين ولكن لست وحدك وأنا أيضا معك بتهمة خطف قاصر.

- مصطفى أرجوك لن يتوقع أحد أنها هنا، لم يرنا أحد عند صعودنا وهي لن تنزل الشارع طوال فترة مكوثها.

- فترة مكوثها؟ ماذا تعنين بفترة مكوثها؟

- بالطبع ستكون قصيرة، الوضع مؤقت حتى أجد لها حلا مع أهلها، وسأعمل علي هذا الحل من الغد.....

تطلع لها مصطفى في عدم اقتناع فأكملت: مصطفى إنه بيتك، لا يمكني إجبارك علي استقبال من لا تود استقباله ولكني لا أستطيع طردها، اخرج لها وأعلمها بذلك.

تطلع لها مصطفى في ضيق فابتسمت في انتصار وقالت: كنت أعرف ذلك، هيا بنا نخرج لها.....

تحرك مصطفى نحو السرير قائلا: لن أخرج يا مها وسأذكرك بكلماتك أن الوضع مؤقت وهو خطير وله مسئولية جنائية.

تطلعت له مها ثم تحركت قائلة: بالطبع يا مصطفى، سأخرج لها الآن.....

تحركت مها إلى خارج الحجرة ومشت عدة أمتار فوجدت رشا قد جلست علي الكرسي الملاصق للباب وقد قامت بمجرد ما رأت مها تتحرك نحوها، ابتسمت مها وقالت: لماذا تجلسين هنا ولم تدخلي؟!

تحدثت رشا في حرج بالغ: أنا أسفة يا دكتورة، أنا اسبب لك مشاكل ولكني لا أعرف أي أحد غيرك الجأ اليه.....

ابتسمت مها واشارت لها قائلة: هيا لأريك حجرتك، تحركت مها وتابعتها رشا إلى داخل الشقة وفتحت مها باب حجرة متوسطة الحجم بها سرير لفرد واحد وكومود ودولاب صغير وكرسي ، التفتت مها إلى رشا قائلة: هل أعجبتك الحجرة؟

رشا وهي توشك علي البكاء: لا أعرف كيف اشكرك يا دكتورة..

امسكت مها بيد رشا وأشارت لها بالجلوس علي السرير وجلست بجانبها ثم بدأت في التحدث قائلة: رشا ستمكثين هنا

حتى أجـد لك حلا مـع أهلك، أنـا أعيش هنـا مع زوجـي مصطفى لا نسـتقبل الكثير من الضيـوف وهناك سـيدة كانـت تأتي كل أسـبوعين لتقوم بأعمـال النظافة سـأخبرها بسـفرنا الفتـرة القادمـة، لا أريدك أن تنزلي إلى الشـارع أو تخرجـي إلى البلكونـة، لو عرف أحـد بوجودك هنا ستسببين في مشكلة كبيرة لي، هل تفهمين؟

أومأت رشـا برأسـها وهـي تنظر إلـى الأرض ثـم قالت فـي حرج متسائلة: زوجك يا دكتورة لا يريدني في البيت؟

مها سـاهمة: هو يخـاف من المسـئولية الجنائيـة ولكنـي اقنعته أنه حل مؤقت فغدا سأبدأ في إيجاد حل مشكلتك مع أهلك.

***

وضعـت رشـا فنجـان مـن القهـوة علـي طاولـة صغيـرة أمام مصطفى الـذي كان يتطلـع إلى هاتفـه المحمـول فالتفتت لها وتمتم: شكرا يا رشا..

ابتسـمت رشـا في سـعادة، فتحت مها في هذه اللحظة باب الشـقة وتحركت نحوهما وقالت في حماسـة: كيف حالك يا رشـا؟ ابتسمت رشا وهي تقول: الحمد لله يا دكتورة.....

ثم تحركت إلى الداخل فجلسـت مها علي كرسي بجوار مصطفى ورمقت فنجان القهوة بنظـرة غاضبة ثم قالت في هـدوء: كيف حالك يا مصطفى؟

لم يرفع مصطفى عينه من هاتفه المحمول وهو يجيب: بخير....

تطلعت مها له لحظات ثم قالت: لماذا لم تنتظرني لنأكل سوياً؟

- كنت جائع فأكلت مع رشا.....

مها في مرح: هذا يجب أن يكون أحد أسبابك لعدم استعجال مغادرة رشا، لقد رحمنا من الأكل الجاهز وأكل أم سامي وأنا معظم الأيام ليس لدي وقت للطبخ.....

رفع مصطفى عينه غاضبًا تجاهها وتطلع لها عدة لحظات في صمت فتحدثت في أسف: مصطفى يجب أن تتوقف عن معاقبتي أنا لم أكن أعرف أن حل المشكلة سيأخذ كل هذا الوقت، أنت نفسك قلت في السابق أن هذه المشاكل تأخذ الكثير من الوقت، كيف يمكني أن أحل مشكلة أسرة مكونة من سبعة أبناء كان يعتمد والد رشا علي مهر زيجتها من الشيخ العربي للإنفاق عليهم في أقل من أسبوعين؟؟ ولكني سأسافر في أقرب فرصة للقرية لأري بنفسي ما يمكني فعله بسرعة...

قام مصطفى ووضع هاتفه في جيب بنطلونه ثم أمسك بالفنجان وقال وهو يتحرك: سأذهب لاستريح بالداخل... تابعته مها وهو يتحرك في ضيق ولم تعقب.

***

استقلت مها السيارة التي تتسع لعدد أربعة عشر راكباً ومعها عدداً من موظفي الجمعية وبدأت السيارة في التحرك نحوقرية الحوميداية التي تبتعد عن القاهرة تسعة عشر كيلومترات، تابعت مها المساحات الشاسعة للأراضي الزراعية ومن يعمل عليها من فلاحين وفلاحات وكذلك الحيوانات التي حرص أصحابها علي وقوفها في أماكن ظليلة، سرحت مها مع أفكارها في هذه الصورة أمامها والتي ظهر أنها تتكرر علي طول طريق سفرها ولكنها مع ذلك لم تشعرها بالملل أو بالضيق ولم تلتفت لحوار موظفيها ولا مزاحهم طوال الطريق الذي ظهر أثر طوله عليهم.

التفتت لهم عندما بدأوا في توزيع كتيبات إرشادية فيما بينهم فأشارت لأحدهم لتأخذ جزءا منها فابتسم وهو يعطيها لها وقال: كيف سيكون برنامج اليوم يا دكتورة؟

ابتسمت وهي تقول: اليوم سنوزع أنفسنا، البيوت للموظفات، الأراضي الزراعية للموظفين وسيكون التركيز علي المشاكل التي تعاني منها القرية وأهمها بالنسبة لنا زواج القاصرات، سنتحدث مع للناس بطريقة مباشرة وهي ستكون وسيلة جيدة لعمل إحصاء مبدئي عن حالة الفتيات ومدي استعداد الأهالي للاستجابة لما نقوله..

وصلت السيارة إلى مشارف القرية، مشت مها مع الموظفات في الطرق الترابية نحو البيوت بينما اتخذ الموظفون طريقهم إلى الأراضي الزراعية.

تأملت مها الطرق غير الممهدة وكذلك البيوت التي يغلب علي معظمها الطوب الأحمر وترتفع نحو دورين أو ثلاثة أدوار علي أقصي تقدير، البيوت المدهونة تكون عدد بسيط من البيوت، مع وجود إعلانات الدروس الخصوصية أو المشروعات الصغيرة أو السفر للخارج علي حوائط عدد من البيوت.

بدأت الفلاحات في الخروج من البيوت بجلابيبهن متعددة الأوان وطرح الرأس حديثة الطراز ليشاهدوا الزوار وكذلك تراص الأطفال علي الطرقات في فضول، بدأت الموظفات توزيع أنفسهن علي البيوت، واتجهت مها إلى أحد الأطفال وقالت وهي تمد يدها لتصافحه: كيف حالك؟

ابتسم الطفل وأبعد وجهه في خجل فامسكته مها في رفق وقبلته علي خديه ثم اقتربت من إحدي الفلاحات الواقفات وهي تقول: كيف حالك؟

ردت الفلاحة مبتسمة: بخير الحمد لله

ابتسمت مها وهي تقول: هل يمكني الدخول؟

ردت الفلاحة في ترحاب: تفضلي يا أهلا وسهلا.

***

جلست مها في مكتبها في مقر الجمعية في قرية الحوامدية الذي لم يكن يشبه مكتبها في فرع الإسكندرية من حيث الحجم أو التجهيز وسمعت جلبة بالخارج ووجدت أحد رجال

أمن الجمعية يطرق الباب ويدخل فوقفت وهي تسأل في قلق: ما الأمر يا عم محمد؟

أجاب الرجل في سرعة: إنه والد رشا يصر علي مقابلتك.

دخل في هذه اللحظة رجل في الخمسينيات من عمره ترك الزمن آثاره علي وجهه، احتضن الفقر جلبابه البالي الذي إن كان يخلو من الثقوب ولكنه يظهر عليه طول مدة ارتدائه.

قال الرجل في رجاء: أريد أن أقابل الدكتورة.

تحدث رجل أمن آخر قائلا في غضب: ابنتك ليست هنا يا رجل، أن لم تخرج بالذوق فسنستدعي ضابط النقطة لطردك...

تحدثت مها أخيرا وهي تقول: اتركوه..

تطلع لها رجال الأمن في دهشة فقالت: أنا أريد أن أسمعه !!

تحرك الرجال في بطء إلى الخارج وأغلق أحدهم الباب خلفه وجلس والد رشا علي كرسي أمام مكتب مها فقالت مها في هدوء: كيف حالك يا عم جبر؟

فأجاب جبر في تأثر: الحمد لله يا دكتورة، لقد رأيتك اليوم وأنت تمرين علي البيوت في القرية وأعرف أنك زرت بيتي معهم...

تطلعت له مها في صمت وهي تبتلع ريقها في صعوبة فأكمل: أنا أعرف أني ظلمتك حين أدعيت خطف رشا ومتأكد من عدم

معرفتك بمكانها، لكني أطلب مساعدتك في العثور عليها لقد سقطت والدتها مغشية عليها من ليلة هروبها ومضي ما يقرب من الشهر وهي لم تقم من السرير حزناً علي رشا.

حاولت مها أن تتحدث في هدوء قائلة: أنا لا أفهم كيف يمكني مساعدتك؟

– أرجوكي ساعدينا لنجدها إذا كانت في الإسكندرية، هي قالت لاختها أنها ستذهب إلى الإسكندرية.

– هل أدركت لماذا هربت ابنتك أم لم تدرك بعد؟

دمعت عينا جبر وهو يقول: ماذا يمكني أن أفعل يا دكتورة أنا أنفق عليها وستة أبناء آخرين وأنا ليس لي أرض ولكني أعمل بالأجرة عند أصحاب الأراضي وما يأتي لا يكفي لشيء.

تحدثت مها في غضب: ابنتك ليس لها ذنب في ظروفك الصعبة لتبيعها لرجل أكبر منك ليتزوجها أسبوع ثم يرجعها لك مرة أخرى....

– لن أزوجها فقط ترجع لوالدتها.

تطلعت مها إلى دموع جبر الصادقة ثم قالت: لي معارف في الشرطة سأطلب منهم البحث عنها مرة آخري.

مسح جبر دموعه في كم جلابيته وهو يقول في تأثر: ألف شكر يا دكتورة، ربنا يكرمك...

***

وضعت مها عدة أكياس بلاستكية فاخرة علي الأرض لتتمكن من فتح باب الشقة بالمفتاح، ثم تحركت إلى داخل الشقة وفتحت باب حجرة نومها قائلة: مصطفى....

لم تجده في الغرفة فوقفت علي الباب دقائق في حيرة ثم اغلقت الباب وتحركت إلى حجرة رشا، توقفت أمام الباب وطرقت عليه في هدوء قائلة: رشا هل أنت بالداخل؟

لم تسمع رداً فلم تجد بداً من فتح الباب في هدوء، أضاءت مصباح الحجرة فوجدت رشا تجلس علي الأرض مستندة إلى الحائط بظهرها ضامة ركبتيها إلى صدرها دافنة رأسها بينهما، اقتربت مها منها وجلست بجوارها ثم وضعت يدها علي كتفها في رفق قائلة في قلق: رشا ما بكِ؟

رفعت رشا رأسها إلى مها وقد ظهرت آثار البكاء الشديد علي عينيها ولم تنطق.

فسألتها مها مرة أخري في فزع:ماذا حدث يا رشا؟

لم تجيبها رشا وبدأت دموعها في السقوط، فابتسمت مها قائلة: أنا أعرف ما يحزنك.. كررت رشا في ذعر: تعرفين؟!

- بالطبع أعرف، أنك تشتاقين إلى أهلك في القرية، لقد طال مكوثك هنا، علي العموم لقد رتبت كل شي ستعودين إلى قريتك الأسبوع القادم و.....

قاطعتها رشا: لا أستطيع الرجوع الآن.

- لقد قابلت والدك الأسبوع الماضي ووعدني أنه لن يغصبك علي الزواج عند عودتك..

صمتت مها عندما رأت دموع رشا العزيزة فوضعت يدها علي يد رشا قائلة: ما الأمر حبيبتي؟! لقد تصورت أن هذه الأخبار ستسعدك مع الوظيفة التي وفرتها لك في مقر الجمعية في القرية...

بدأت مها تخرج ما بداخل الأكياس وهي تقول مبتسمة: انظري لقد اشتريت لك ملابس جديدة آمل أن يعجبك ذوقي...

لم تستطع رشا أن تتمالك نفسها وبكت بصوت مرتفع ثم قالت: سامحيني يا دكتورة... مسحت مها علي شعر رشا وهي تقول في رفق: علي ماذا؟

- سامحيني لم أقصد ما حدث.

تطلعت لها مها وقالت في تأثر وحيرة: لا افهم ما الأمر يا رشا؟!!

***

دخل مصطفى إلى حجرة نومه فوجد مها متكئة علي السرير تقرأ في أحدي الكتب فقال في اقتضاب: مساء الخير.

رفعت مها عينها من الكتاب وهي تقول: مساء النور، مصطفى أين كنت؟ لقد اتصلت بك أكثر من عشر مرات..

بدأ مصطفى فـي خلع سـترته وهويقول فـي ضجر: كنـت في عدة اجتمعات متتالية وأغلقت الهاتف.

قامت مها من السرير وهي تقول: لقد رجعت اليوم و لم أجد رشا.

تطلع لهـا مصطفـى صامتـاً فأكملت: لا أعـرف ماذا أفعـل ولا من أسـأل؟لقد تحدثـت معهـا بالأمـس وقالـت إنهـا لا تسـتطيع العـودة لأهلها.

مصطفى في قلق: ماذا قالت لكِ؟

– لم تقل شـيئا يا مصطفى، سـأموت قلقـاً علي الفتاة ولا أسـتطيع الاتصال بأهلها للاطمئنان عليها و.....

قاطعها مصطفـى في ضجر: مهـا يكفي ما حدث، يكفـي ما حدث لحياتنا ألا ترين الدمار الذي أصابها بسبب عملك؟

تطلعت مها له في صدمة ثم قالت: مصطفى عما تتحدث؟

مصطفى في ثـورة: مها لقد سـئمت، سـئمت طريقتـك وتفضيلك المسـتمر لعملك علي حياتنا أنت لا تشعرين بشـي ء، لا تشعرين بشي ء علي الاطلاق..

– مصطفى أنا لا أفهم شيئا...

تطلـع لهـا مصطفـى صامتـا ثـم قـال فـي حسـم: سـأنام بالحجرة الأخرى.

***

أوقفت مها سيارتها أمام قسم شرطة محرم بك ثم تحركت مسرعة إلى داخل القسم وصعدت سلالم الدور الأول في سرعة متجنبة الاصطدام بالكثير من الأشخاص حتى وصلت لحجرة الضابط المنوب، وجدت مصطفى وبجواره أحد الأشخاص يقفان خارجها مستندين إلى الحائط فقالت في قلق: ما الأمر يا مصطفى؟ ثم التفتت إلى الرجل الأخر: ما الأمر يا أستاذ حسين؟

تحدث حسين: والد فتاة تدعي رشا جبر من قرية الحواميدية يتهم المهندس مصطفى بهتك عرض ابنته.

تطلعت له مها مصعوقة وتمتمت: مستحيل، مستحيل أن تصل به الحطة إلى هذه الدرجة كيف يمكنه أن يتهمه بهذا الاتهام؟

تطلع مصطفى إلى زوجته صامتاً، فأكمل حسين: دكتورة مها لقد عرفت من المهندس مصطفى أنها كانت تقيم معكم مدة، هذه الإقامة تعتبر جريمة في حد ذاتها، خطف قاصر بعيداً عن الاتهام الأخر.

لم تجد مها رداً، فأكمل: لا يوجد دليل علي إقامتها معكم، الحل الوحيد هو الإنكار يا دكتورة .

تطلعت له مها في حيرة وقالت: لكن يا أستاذ حسين.....

قاطعها في تأكيد: لا يوجد حل آخر، سيبدأ التحقيق باستجواب المهندس مصطفى ثم باستجوابك....

دخـل مصطفـى مـع حسـين إلـى الحجـرة وأغْلـق البـاب خلفهم وانتظـرت مهـا بالخـارج، يقاطـع أفكارهـا تحرك مـن عليهـم أحكام مقيـدة أيديهم بالاصفـاد يقتادهـم أمناء الشـرطة أو من جـاءوا لتحرير محاضر مختلفة.

غاب مصطفـى في الداخل ما يقـرب من السـاعة إلا الربع، تعلقت عيـن مها ببـاب الحجـرة حتـى خروجهـم وتحدثت فـي سـرعة: ماذا حدث؟

حسين مطمئناً: لا تقلقي، المهم الآن الالتزام بما اتفقنا عليه.

تحركت مهـا إلـى داخل الحجـرة وأشـار لهـا الضابـط بالجلوس وجلـس حسـين علـي الكرسـي المقابل لهـا ثـم تحـدث الضابط في حزم: اسمك ووظيفتك وعنوانك.....

تحدثـت مهـا فـي محاولـة تصنـع الهـدوء: مهـا محمـد سـليمان الوكيـل، أسـتاذ علم الأجتمـاع بجامعـة الاسـكندرية ورئيـس جمعية زهرات الحياة ، العنوان عمارة اللوتس، كفر عبده الإسكندرية.

– ما ردك علـي اتهام جبـر كارم سـند طنطـاوي علي خطـف ابنته رشا وهتك عرضها؟

– ادعاء كاذب لم نخطفها وبالطبع لم يغتصبها زوجي

– والد الفتاة يصر علي خطفكم إياها في منزلكم...

تطلعت مها إلى حسين لحظة ثم قالت: ابنته لم تقيم في بيتي أبداً.

ثم تحدث حسين: إذا كان لديه دليل علي ذلك فليأت به...

تطلع له الضابط صامتاً ثم قال: لماذا برأيك يتهمك هذا الاتهام؟

- هذا الرجل اقتحم مقر الجمعية في الحواميدية للبحث عن ابنته ثم أبلغ الشرطة عن خطفنا إياها واحتجازها في مقر الجمعية في الإسكندرية وكل تلك الإدعاءات كانت كاذبة و.....

قاطعها الضابط: لكن تم هتك عرض ابنته بالفعل لقد أجري الطب الشرعي الكشف عليها وتم التأكد من ذلك.

تطلعت له مها مصدومة ولم تنطق، فتحدث حسين قائلاً: هذا الرجل أزعج الدكتورة وزوجها بمشاكل ابنته وفي كل مرة تظهر براءة الدكتورة جلية من كل اتهاماته الباطلة.

تطلع له الضابط صامتاً ثم قال: يمكنك الانصراف الآن يا دكتورة.

تحركت مها إلى الخارج بخطوات بطيئة فأقبل مصطفى قائلاً في قلق: ما الأمر؟

حسين في سرعة: لا تقلق، موقفنا قوي.

تطلعت لهما مها في صمت ثم قالت: مصطفى سأذهب للبيت..

مصطفى في سرعة: كما تحبين ثم اقترب من حسين قائلاً: أريد أن ينتهي هذا الموضوع اليوم وبأي ثمن

تحركت مها بخطوات بطيئة وكأنها منفصلة عما حولها ويرن في إذنيها كلمات الضابط «لقد تم هتك عرضها بالفعل» فاصطدمت بعدة أشخاص وهي تتحرك إلى خارج القسم ثم ركبت إلى سيارتها ودوت في إذنيها عبارات رشا الأخيرة قبل أن تغادر المنزل: لا أستطيع العودة، سامحيني يا دكتورة.

***

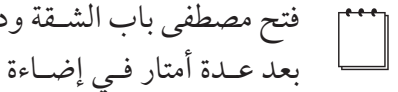

فتح مصطفى باب الشقة ودلف إليها فوجد مها تجلس علي بعد عدة أمتار في إضاءة خافتة فرفعت رأسها تتطلع إليه فأغلق الباب ببط ء فتوقفت هي مكانها تنظر إلى عينيه في صمت فخفض هوبصره إلى الأرض.

فتحدثت مها بصوت منخفض قائلة: قل إن هذا لم يحدث !!

رفع مصطفى بصره إليها ثم خفضها في سرعة فرفعت صوتها قائلة: قل وساصدقك ولوكذبك الكل !!

ثم رفعت صوتها قائلة: قل أنك لم تغتصب فتاة في السابعة عشر من عمرها.

تحدث مصطفى في خفوت قائلاً: لم يكن اغتصاب، ما حدث كان برضاها.

تحركت مها نحوه وهي تصرخ: هل هذه هي حجتك؟ أن ما حدث كان برضاها، إنها في السابعة عشر من عمرها، لو أنجنبنا لكان لدينا فتاة في مثل عمرها!!

مصطفى في سرعة: مهـا أرجوكي أنـا أعرف أني أخطـأت ولكنها فـي المقابـل أخطـأت هـي الأخـري ثـم وضـع يديـه علـي ذراعيهـا فانتفضت قائلة: لا تمسسني.

تطلع لها صامتاً فأكملت: كيف انتهت المشكلة؟

– لا يوجد دليل علي إقامتها معنا ولا شـهود، القضية يمكن نسفها بسهولة ولكني رضيت والدها بمبلغ كبير من المال.

تطلعت إليه مبهوتة قائلة: اشتريت شرف ابنته؟!

تحركـت إلى داخل الشـقة فتبعها قائلاً: مها اسـمعيني هـذا الرجل كان سـيفعل هذا مع عريـس ابنتـه الثري العربـي هل يمكـن أن تعدي فرقاً إذا كان هناك ورقة تثبت هذا الزواج أو لا؟!

كانت قد وصلت إلـى حجرتهمـا فالتفتت له فـي ثورة قائلـة: ماذا عـن الفتـاة التـي ضيعـت شـرفها، ألـم تفكـر فيها، هـل كنـت أحاول إنقاذها من أهلها لتقيم معها علاقة غير شرعية؟!

تطلع لها مصطفى صامتاً ففتحت دولاب ملابسـها وبدأت في سـحب مـا أمامها في سـرعة ووضعـه في حقيبـة كبيرة ثـم صرخت فـي مصطفى قائلـة: مـاذا عنـي يـا مصطفـى؟ ألم تفكـر فـي وأنـت تفعل ذلـك؟ كيف يمكنك أن تفعل بي ذلك؟ بعد أكثر من سبعة عشر عاماً من الزواج؟

تحـدث مصطفى في خفـوت قائلا: أنا أسـف يـا مها، أنـا اخطأت خطئـا كبيرا لا أعرف مـاذا أفعل لاصلاحـه؟ أغلقـت الحقيبة ودمعت

عيناهـا وهي تقـول: لن يجـدي الأسـف، ولا يوجـد ما يمكنـك فعله لاصلاح ما حدث.

ثـم التفتت لـه قائلـة: مصطفى أنـا أريد الطـلاق، أرجـو أن يتم في سرعة.

انتفض مصطفـى وهو يقول: مها ماذا تقولين؟ مسـتحيل، سـنعمل علي حل لهذه المشكلة معاً كما أعتدنا في حياتنا.

سحبت الحقيبة من علي السرير قائلة: لا يوجد حل يا مصطفى.

توقف أمامها وهويقول: ابق في بيتك وسأغادر أنا.

مها في هدوء وتصميم: لم يعد بيتي يا مصطفى.

تطلع مصطفى إلى عينها قائلاً: أرجوكي يا مها.

ولما لم يجد سـوي نظرة تصميـم من مهـا فتحرك جانبـاً وقال في يأس: يمكنني أن أوصلك.

قالت وهي تسحب حقيبتها علي الأرض: لا.

ثم أغلقـت الباب في عنـف وتحركـت نحو المصعـد ووضعت به الحقيبـة ثم اسـتقلته إلى الـدور الأرضـي وفتحت المصعد وسـحبت الحقيبة فجاء بواب العمارة قائلاً في سرعة: خير يا دكتورة؟

حاولت مها رسـم ابتسـامة صغيرة علـي وجهها وهي تقـول: خير يا فتحي، والدتي مريضة سأقيم عندها عدة أيام.

أخذ الحقيبة من يدها وتحرك خلفها نحوالسيارة وهو يقول: ألف سلامة، يجب أن تطمأنينا علي الحاجة، سنطمئن من المهندس مصطفى.

توقفت مها أمام السيارة وفتحت حقيبتها بجهاز التحكم الألي له وهي تقول في سرعة: إن شاء الله.

تحركت مها بالسيارة وهي تشير بالسلام إلى فتحي الذي ظل يكرر نيته للاطمئنان علي والدتها، وبعد أن ابتعدت عدة أمتار من أمام العمارة لم تستطيع التحمل وبدأت في البكاء بصوت مرتفع، دقائق وسمعت رنين هاتفها المحمول فأخرجته من حقيبة يدها ونظرت علي المتصل فوجدته مصطفى فأغلقت التليفون واستمرت في البكاء لمدة قيادتها للسيارة التي اقترب من النصف ساعة.

مسحت دموعها في سرعة وهي تغادر السيارة إلى بيت مكون من طابقين فقط في منطقة المنشية، جرت حقيبتها علي السلالم حتى وصلت للدورالثاني وضغطت زر الجرس في سرعة ودقائق وفتحت لها سيدة في أوائل الستين من عمرها، غطي البياض شعرها حتى غلب اللون الرمادي عليه، وخط الزمن آثاره حول عينها وفمها وإن كنت قد ترك بقايا جمال قديم يشبه جمال مها.

ابتسمت لنصف دقيقة وهالها ما وجدت عليه ابنتها فأقبلت تحتضن مها التي بكت قائلة: أمي.....

***

جلست مها علي أرض الحجرة ووضعت أمامها عدد كبير من الجرائد وأخذت تتصفحهم في سرعة، دخلت والدتها وتطلعت لها في صمت ثم تحركت نحو الشباك لتفتحه وقالت: مها ماذا تفعلين؟

لم ترفع مها عينها من الجرائد هي تقول: أبحث عن شي ء مهم يا أمي.

جلست والدتها أمامها وهي تقول: ما المهم الآن وأنتي تطلبين الطلاق من مصطفى؟

– مهم يا أمي، مهم...

أمسكت الأم بيد ابنتها وهي تنظر لها وتقول في حنان: مها أخبريني ما الأمر؟ ماذا حدث جعلك تطلبين ذلك؟ ماذا فعل مصطفى؟ منذ جئتي لم تخبريني بشي ء

تطلعت مها إليها ودمعت عينيها وهي تقول لنفسها: ليتني أستطيع أخبارك يا أمي.

– ماذا حدث يا مها؟

لم تستطع مها كتم دموعها وهي تقول: أريد الطلاق يا أمي؟

رفعت الأم صوتها في غضب وهي تقول: كيف ألبي طلبك وأنا لا أفهمه ماذا أقول لأخيك كيف يتحدث مع مصطفى وهو لا يعرف شيئا؟

ظلت مها علي سكوتها حتى هزت الأم رأسها في غضب وهي تقوم قائلة: لا يمكني احتمال ذلك، لا أعرف ماذا الذي يمكني فعله لكي؟

تحركت الأم إلى خارج الحجرة بخطوات سريعة، ومسحت مها دموعها وأكملت بحثها داخل الجرائد حتى وجدت خبر في أحدي الجرائد المستقلة عن اتهام زوج أحدي رئيسي الجمعيات الأهلية بهتك عرض أحدي فتيات الجمعية، ذكر الخبر أنه تم الافراج عنه بعدما تبين أنه بلاغ كاذب، تطلعت مها إلى الخبر وقرأته عدة مرات ثم رمت بالجريدة أمامها في غضب.

***

دخلت الأم إلى حجرة مها وكان بصحبتها إحدي السيدات التي تقارب مها في السن فتطلعت إلى مها النائمة ثم قالت: لا تقلقي أنا سأوقظها.

تطلعت لها الأم ثم خرجت من الحجرة في يأس، فتحركت تلك السيدة إلى الشباك وفتحته قائلة: قم يا جميل الساعة تقترب من الثانية ظهراً.

دخلت أشعة الشمس إلى الحجرة حزينة كحزن صاحبتها وبدأت تلك السيدة في هز مها في لين ففتحت مها عينها وهي تقول في خفوت: بسمة، ماذا جاء بكِ؟

ابتسمت بسمة وهي تقول: يجب أن أكون بجانب صديقتي في طلاقها، كما كنت في زواجها بالضبط.

كانت بسمة لها ملامح دقيقة تبرزها بتبرج كامل ولكنه غير مبتذل، ترتدي رداء رأس صغير تربطه للوراء بأسفل رقبتها التي تخفيها ببراعة بملابسها وقد ظهر حبها لارتداء قطع الزينة من سلاسل وأساور حلي مختلفة.

جلست بسمة أمامها وقالت في جدية: مها ماذا تفعلين؟ أنك لا تذهبين إلى الجامعة أو إلى الجمعية، ألا يمكنهم رفدك إذا انقطعتي عن عملك؟

مها في ضجر: أخذت إجازة.

– وماذا عن طلب طلاقك، لقد طال زمن هذه المزحة حتى سأمنا منها جميعاً.

– أنا لا أمزح يا بسمة، إذا لم يطلقني مصطفى بشكل ودي سالجأ للمحاكم للطلاق أو للخلع.

– لماذا كل هذا؟

صمتت مها وهي تتطلع إلى صديقتها فضحكت بسمة ضحكة صغيرة وهي تقول: كيف اكتشفتي؟

تطلعت لها مها مذعورة فأكملت بسمة: هل تظنين أنك الوحيدة، لقد انضممتي للنادي متأخر ليس إلا، هل ضبتيه يتحرش بالخادمة، أم اكتشفتي ورقة زواجه العرفي من السكرتيرة، لقد مررنا بذلك وغفرناه.

- لماذا غفرتم؟

- حتى لا نخـرب بيوتنا بأنفسـنا، ومن أجـل الأطفـال، ومن أجل عشرة السنين؟

- وهل تذكروا هم عشرة السنين قبل أن يفعلوا ذلك؟

- لا ولكنـه قدرنـا أن يخطئـوا و قدرنا أن نسـامح أجل أن تمشـي المركب، من أجل أن تستمر الحياة؟

تطلعت لها مها لحظات ثم قالت: لا يمكني أن أفعل مثلكم يا بسمة.

***

دخلت والدة مها إلـى حجرتها فوجدت ابنتها تجلس سـاهمة فقالت: مها أرجوكي أخرجي لمقابلته.

رفعت مها رأسها وقالت في خفوت: لا أريد.

جلسـت بجوارهـا علـي أحـدي الكراسـي وقالت فـي رجـاء: لم يطلب من أسـامة شيئاً سـوي مقابلتك وقال إنه مسـتعد للطلاق بعدها وإلا لن تحصلي عليه إلا من المحاكم.

لن تحل مقابلتي له شيئاً

- أخرجي لمقابلته من أجلي، أحلفك برحمة الغالي والدك!!

- تطلعت مهـا لأمها صامتة ثـم قالت في خفوت: سـأخرج خلال دقائق.

جلست مها بجوار أمها وجلس مصطفى بجوار شاب يشبه في ملامحه إلى حد كبير ملامح، ساد الصمت الجلسة فقالت الأم مرحبة: كيف حالك يا مصطفى؟

مصطفى في سرعة: الحمد لله بخير.

ابتسمت الأم وهي تتطلع له ثم نظرت إلى ابنها وقالت وهي تقوم: تعال يا أسامة، أريدك أن تساعدني في شي ء في المطبخ.

تحرك أسامة وراءها فتطلع مصطفى إلى مها التي كانت قد فقدت كثير من وزنها، وارتدت قميصاً أسود اللون ساعد في ظهورشحوب وجهها والهالات السوداء تحت عينها ورفعت شعرها في إهمال.

مصطفى في اهتمام: كيف حالك يا مها؟ تبدين مرهقة...

ابتسمت مها وقالت في سخرية: أبدو في حالة مزرية، لا حاجة بي لادعاء العكس، فأنت لم تأت لخطبتي.

خفض مصطفى عينه وقال في خفوت أقرب إلى الهمس: لقد أفتقدتك...

ضحكت مها في سرعة: مصطفى ماذا تفعل؟ لا حاجة بنا لضياع الوقت، لم يعرف أحداً سبب رغبتي في طلب الطلاق، ولكني لا أعرف ماذا يمكنك أن تقول ليغير مما حدث؟

– لا شي ء يمكن أن اقوله سيغير ما حدث ولكني مستعد لأفعل كل ما ترين أنه يلزمني فعله، يمكني أن اتزوج الفتاة أو أُقدم نفسي للمحاكمة إذا كان هذا يعني بقائك بجانبي.

– أي شـي ء سـتفعله سـتفعله من أجلـك أو من أجل رشـا، لا من أجلي.

– مها بيننا سبع عشر سنة زواج، لا يمكن لخطأ أن يضيعها.

– بالفعـل لقـد تزوجت رجلا لمدة سـبع عشـر سـنة، هـذا الرجل اتهم في قضية هتـك عرض فتاة قاصر، لقد ذهب معي للقسـم، بالطبع لم يكن ليفعل شـيئاكهذا ولكنه لـم يخرج من القسـم يومها، لا أعرف ماذا حدث له؟ ولكنه لم يخرج...

خفض مصطفى نظره ثم رفعـه وقال في رجاء أقرب إلى التوسـل: مها أرجوكي، أنه الخطأ الأول من نوعه خلال سـبع عشـر سنة زواج، لابد أن تسامحيني و...

قاطعته مهـا في حـزم: مصطفى ما رأيـك أن نعكـس الأدوار، هب أني نمـت مع أحـد طلابي فـي الجامعة ثـم جئت لاعترف لـك بذلك بدون أن يعرف أي شـخص، بدون أن يؤثر ذلك علي عملك ولا علي مركزك الاجتماعي، هل سـاعتها سـتعطي أي قيمـة لدموعي وكلامي أنها كانـت لحظة ضعف وأننـي لا أعـرف كيف حدث ذلـك وأن هذا الموضوع انتهـي وأنني جئت لاعتـرف لك لأني لا أسـتطيع أن أخفي عنك شيئا كهذا؟

صمتت مها فتطلع لها مصطفى صامتاً فقالت: هل ستسامحني؟

خفض مصطفى بصـره فرفعت مها صوتها مكررة: هل ستسـامحني يا مصطفى؟

قام مصطفى قائلاً: مها ستصلك ورقة طلاقك في أقرب وقت ومعها كل حقوقك، ابتسمت مها في سخرية قائلة: لا أريد منك شيئا سوي الطلاق، تحرك مصطفى إلى الخارج وسمعت ماجدة وكذلك أسامة صوت الباب وهو يغلق فجاءت مسرعة إلى ابنتها وقالت في قلق: ماذا حدث؟ تطلعت لهم مها وكأنها لا تشعر بما حولها في صمت.

***

أمسكت مها بوثيقة الطلاق أو كما تسمي في المصالح الحكومية (إشهاد طلاق رجعي) وقرأت بيانتها من تاريخ يوم الطلاق وبيانات الشهود وبيانات مصطفى والبيانات الخاصة بها حتى وصلت لسطر وقد أفهمنا أن هذه طلقة أولي (تحرر هذا الاشهاد بطلاق السيد / مصطفى محمد عبد الله السيد لزوجته السيدة / مها محمد سليمان الوكيل)

انهارت مها باكية بصوت مرتفع فدخلت عليها أمها وجلست بجانبها وضمتها في حنان وقالت في خفوت: ألم تصري علي الطلاق يا مها؟

رفعت مها الورقة وكأنها تشهد والدتها عليها فربتت علي كتفها، فاستمرت في البكاء بصوت مرتفع وهي في حضن والدتها التي ظلت تمسح علي شعرها وكتفها.

***

وقفت مها أمام والدتها التي كانت تتابع التلفزيون وقالت في سعادة: هل ستخرجين؟ ابتسمت مها وقالت في هدوء سأذهب للجمعية.

حاولت مها تغير الألوان الداكنة التي ترتديها وصففت شعرها في اهتمام فابتسمت الأم وهي تقول: مع السلامة.

قادت مها سيارتها إلى الجمعية وقد أحست بطول المدة التي قضتها في المنزل حتى حصولها علي الطلاق، وعندما وصلت إلى الجمعية استقبلها حراس الأمن في ابتهاج واحتضنتها ابتسام وقبلتها في سعادة، سارت مها بجانبها وقالت: كيف حال الجمعية؟

ابتسام في سرعة: العمل يسير علي ما يرام بالجمعية، لم يكن ينقصنا سواك يا دكتورة

أوصلت ابتسام مها إلى مكتبها، وقفت داخل الحجرة و تأملتها، ثم جلست علي مكتبها وبدأت في قراءة الأوراق الموجودة عليه تمعن إلا أنها لا تدري لماذا تذكرت جبر والد رشا عندما جاءها في مقر الجمعية في الحواميدية يطلب مساعدتها في البحث عن ابنته ثم بكاء رشا في آخر يوم لها في الشقة.

في هذه اللحظة قررت مها مغادرة مكتبها والاطمئنان علي سير عمل الجمعية وحال البنات دخلت إلى فصل لمحو أمية الفتيات فتوقف المدرس عن الشرح موجهاً التحية لمها وظهرت الفرحة علي الفتيات لرؤيتها.

فابتسمت وسألت عن حال الفتيات واستعداهن لامتحان محوالأمية، ثم دخلت إلى مشغل الفتيات فوجدت ابتسام هناك التي ابتسمت عندما رأتها وبدأت في وصف عمل الفتيات في الفترة التي غابتها مها ولكن تركيزمها كان منصب علي فتاة كانت تخيط بالماكينة رأتها مها تشبه رشا إلى حد كبير وتساءلت في قراراة نفسها: هل من الممكن أن تكون هي رشا؟

شعرت مها بالدوار من الفكرة ووضعت يدها علي الحائط ورائها تنبهت ابتسام لما أصابها فتسائلت في قلق: خير يا دكتورة؟

بدأت باقي البنات في الانتباه لما يدور لمها فرفعن رؤوسهن من علي الماكينات بما فيهم البنت التي كانت تظن مها أنها تشبه رشا، فوجدت مها انها ليست رشا ولا حتى تشبها. خرجت علي الفور من المشغل فخرجت ابتسام وراءها مذعورة وهي تقول: ماذا حدث يا دكتورة؟

مها في إعياء: أشعر ببعض التعب يا ابتسام.

- هل ننقلك إلى المستشفي القريب؟

لوحت مها بيدها قائلة في سرعة: لا لا يا ابتسام أنه بعض الإعياء ليس إلا، أحضري لي فقط مشروبا دافئاً في المكتب.

تحركت ابتسام علي الفور لتنفيذ الطلب، بينما تحركت مها إلى دورة المياه في سرعة وأغلقت على نفسها باب أحدهم وتقيأت كل

في معدتها في المرحاض، جلست مها علي أرض الدورة ووجها إلى المرحاض وحاولت رفع شعرها إلى الأعلي ثم ضربت زر الطارد. وعندما خرجت وتطلعت إلى نفسها في المرآة وحاولت غسل وجهها عدة مرات لتخفي دموعها الغزيرة التي سقطت رغماً عنها.

***

وقفت مها أمام مدرج ممتلئ بالطلاب وقد وضعت ميكرفون صغير بملابسها وقالت في ثقة: حدد كلا من «كامبل يونغ» و«ريموند ماك» علم الاجتماع بأنه الدراسة العلمية للمظاهر الاجتماعية للحياة الإنسانية والمعرفة البشرية المرتبطة بها، من خلال التفاعل الاجتماعي، ثم توقفت وتطلعت للطلاب أمامها وتسائلت: ماذا يعني ذلك؟

ثم أكملت: علم الاجتماع يختص بدراسة سلوك الأفراد في مضمونه الجمعي، لا يتم دراسة سلوك الإنسان منعزلا بذاته، ولكن يختص بتأثير الجماعةعلي سلوكه، فردود أفعاله ومظاهر سلوكه في كثير من الأحيان تكون نتيجة لتوقعات أفراد الآخرين منه وقد يصيبكم الدهشة أنه حتى قراره باختيار شريك حياته مرهون بالمجتمع

ابتسمت مها عندما بدأت القاعة تضج الضحك بعد جملتها الأخيرة وقال في هدوء: كل ذلك يمكننا إثباته بعلوم ونظريات علم

الاجتماع نعم اختيار الفرد لشريك حياته مرهون بالمجتمع الذي يحيط به.

رفع أحد الطلاب أيديهم فأشارت له مها بالكلام وهي تنظر إلى الكتاب الذي أمامها ولا تدري كيف تذكرت قسيمة طلاقها ببيانتها من أسماء الشهود واسمها واسم مصطفى فلم تسمع شيئا مما ذكره الطالب فقالت في هدوء: لم اسمع سؤالك من فضلك أعده.

فقال الطالب: إذا كان علم الاجتماع يدرس ما هونمطي ومتوقع من الافراد فكيف يوجد به فرع لدراسة علم النفس يسمي «علم النفس الاجتماعي»؟

اجابت مها في سرعة: علم النفس الاجتماعي هو فرع من فروع علم النفس وهويختلف عن علم الاجتماع اختلافا كبيرا، علم الاجتماع يدرس المجتمعات من حيث تكرار ظواهرها، علم يقوم علي التجريب يقوم علي الملاحظة وإعمال الفكر في الظواهر الاجتماعية

توقفت مها للحظات استعادت خلالها كلمات المحامي وهي تستعد لدخول التحقيق الخاص بهتك عرض رشا وتتذكر خروجها بعدما فهمت ما حدث، طارت منها الكلمات وظلت تحدق في الطلاب ثم قالت: ماذا كنت أقول؟

سمعت عدة كلمات من الطلاب عن علم الاجتماع - الفرق بينه وبين علم النفس الاجتماعي فقالت في سرعة: نعم، كما كنت أقول

علم الاجتماع يدرس المجتمع من حيث تكرار ظواهرها وتعدد مؤسساتها وتنظيماتها وكثرة ما فيها من طبقات أو فئات أو نظم اجتماعية فهو يبدأ بالمجتمع البشري وينتهي عنده، أما علم النفس الاجتماعي ف..

تتابعت الذكريات في رأس مها فتذكرت رشا وهي تبكي وتقول أنها لن تستطيع العودة إلى أهلها وتذكرت دموع جبر والدها وهو يرجوها أن تساعده للعثور علي ابنته وتذكرت اعتراف مصطفى بأن ما حدث كان برضاء رشا الكامل.

سكتت مرة أخري وتطلعت للطلاب الذين بدورهم تطلعوا إليها في دهشة فوضعت يدها علي رأسها وقالت في حرج: اعذروني، فأنا اشعر بالتعب الشديد اليوم، ماذا كنت أقول؟

سارع الطلاب بالكلام (علم النفس الاجتماعي) فقالت في سرعة: نعم، علم النفس الاجتماعي يلقي الضوء علي الانسان من خلال معايشته للمجتمع وليس من خلال انفراده بذاته فهو يدرس الفرد مروراً بالمجتمع الذي يعيش فيه وانتهاء بالنتائج التي يخرج منها والآثار التي يؤثر بها، ويدرس أيضا الآثار الثقافية الموروثة والمكتسبة للإنسان من حيث أنه هونفسه سلسلة حضارية بعيدة الأمد، وهوبذلك يختلف اختلافا جذريا عن (علم النفس الاكلينيكي) وهو العلم المختص بدراسة الفرد من ناحية الذاتية وهو يسمي علم النفس السريري ويختص بفهم طبيعة القلق والضغوط والاضطرابات

أو الأمراض النفسية والخلل الوظيفي الناتج عنها ومحاولة التخفيف من حدتها والتغلب عليها وذلك من خلال الفحص والتشخيص والعلاج.

أغلقت مها الكتاب الذي أمامها وهي تقول: سنتوقف هنا اليوم والمحاضرتين القادمتين ملغتين وسنكمل بعد أسبوعين، بدأت في جمع أوراقها وكتبها وابتعدت عن الطلاب الذين جاءوا لسؤالها وهي تقول: سنؤجل الأسئلة للمحاضرة القادمة.

***

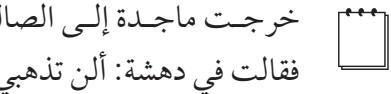

خرجت ماجدة إلى الصالة فوجدت مها تقرأ في كتاب فقالت في دهشة: ألن تذهبي إلى الجامعة اليوم؟

ردت مها في هدوء: لقد أخذت إجازة من الجامعة.

تطلعت لها الأم في دهشة فقالت في حزن: إلى متي سيكون حالك بهذه الطريقة؟ أنت لا تخرجين من البيت تقريباً.

– أنا بخير يا امي، لا يمكني العمل وأنا أشعر بالتعب، هذا هو الحال، لا يوجد شي ء آخر جلست ماجدة بجانب ابنتها وهي تقول: لكن يا مها...

قاطعتها مها في هدوء: يا أمي لا يوجد مشكلة، أنا بخير وسأذهب إلى العمل عندما أتحسن تطلعت الأم إلى ابتنها صامتة ثم قامت لتدخل إلى المطبخ وهي تقول: هل ستتناولين الإفطار معي؟

تطلعت مها إلى الكتاب وهي تقول: لا اشعر بالجوع يا أمي رفعت الأم صوتها وهي تقول: كما تحبين يا مها، اتعبي قلبي معك إلى آخر ما تريدين...

تطلعت مها إلى الكتاب في يديها وكان يسمي (قواعد المنهج في علم الاجتماع) من تأليف (إميل دوركايم)، وصلت مها إلى الصفحة الخامسة من الكتاب بصعوبة بعد أكثر من نصف ساعة قراءة وهي بهذا لم تجتاز مقدمة المترجم للكتاب وقرأت السطور التالية عدة مرات (وهذا الكتاب الذي رفعه إلى مصاف كبار الأساتذة، وأخيرا فتحت السربون أمامه أبوابها وجعلته أستاذا لعلم الاجتماع في سنة 1902).

أصابها الملل الشديد بعد قراءة هذه السطور الثلاثة فاغلقت الكتاب في عنف وهي تتطلع لما حولها في ضيق ثم أمسكت بجهاز التحكم عن بعد لجهاز التلفزيون وفتحته وبدأت تغيير قنواته في ضجر.

***

دخلت بسمة إلى حجرة مها، تطلعت لها في ضيق عندما وجدتها نائمة، وفتحت الشباك كعادتها، فظهرت الشمس في كبد السماء ثم تحركت نحوها وهي تقول في حزم: مها قومي.

استغرقت مها عدة دقائق حتى تشعر بوجود بسمة وقالت وهي تقوم في كسل: ما الأمر يا بسمة؟

جلست أمامها وهي تقول: مها إذا كنت تظنين أننا سنشاهدك صامتين وأنت تدمرين نفسك، فأنت واهمة..

تطلعت لها مها وهي تحاول طرد آثر النوم منها ثم قالت في ضجر: أدمر نفسي؟!

- لقد عرفت من والدتك، أنك أخذت إجازة من عملك، لا تذهبين للجمعية، لا تخرجين من البيت، لا تأكلين، هل هذه طريقتك للانتحار؟

أدارت مها رأسها في ضيق وهي تقول: بسمة أنك تعرفين طريقة أمي في شرح الأمور، أنا بخير، كل الناس عندما تتعب تأخذ إجازة من عملها، لا علاقة لطلاقي،

- علي أساس أنني تعرفت عليك بالأمس، وأن ما تقولينه سأصدقه علي الفور.

صمتت مها وهي تتطلع لصديقتها فقالت بسمة: مها، لقد سافر مصطفى إلى الخارج، باع مكتبه وصفي عمله وسافر.

- وما شأني أنا بهذا، لقد انفصلنا يا بسمة، لو كنتِ نسيتي !!

- نعم أعرف، ولهذا أقول لكِ هذا لتعيشي حياتك ولا تنتظري أحد.

- لم أكن انتظر أحد.

رفعت بسمة حواجبها في دهشة وقالت: إذا كان الأمر كذلك، فأنتِ ستفعلين ما أقوله لك، هناك طبيب جراح تعرفت عليه أنا ومحمد لأنه يأتي إلى تمرين السباحة مع ابنته كل أسبوع، فهو وزوجته منفصلين من أربع سنوات، جراح محترم من عائلة وناجح جداً في عمله ويأتي لابنته في التمرين كل اسبوع، هل يمكنك تخيل ذلك، محمد لا يذهب إلى تمارين الأولاد أبداً سوي بعد عراك وشد وجذب...

استمرت بسمة تعدد في مزايا الجراح ، سمعتها مها صامتة، فهي لم تستطع شرح أنه إذا بدأت المشكلة برجل فالحل لا يجب دوماً أن يحتوي علي رجل بديل.

***

قلبت مها قنوات التلفزيون في ملل، فقد احست أنها اكتشفت للتو هذا الجهاز في البيت، فلم يكن وقتها يسمح من قبل لهذه المتابعة التي تستغرق منها الآن الساعات، شاهدت العديد من الدراما التركية المدبلجة للعربية، وقد رأت أن العديد من الحلقات تعرض طريقة حب البطل للبطلة والمفاجآت السارة التي يعدها لها والكلمات المعسلولة التي يغمرها.

تابعت الدراما الهندية ورأت أنها في أغلبها تعتمد علي المبالغات، المبالغات في مشاهد العنف والضرب والمبالغات في إظهار الحب، فالحبيب في هذه الحالة علي أتم استعداد أن يجلب نجمة من السماء لحبيبته أو علي الأقل يتلقي رصاصة بدلاً منها.

تابعت الدراما الأمريكية وقد شاهدت العديد من الأعمال التي تتحدث عن أبطال خارقين و حكايات الخيال العلمي، أو علي مشاكل المتحابين أو الأزواج التي كانت تحل عندما يصلوا إلى لحظة مكاشفة حقيقة بينهم.

حاولت أن تتابع الدراما المصرية ولكنها وجدت معظمها تدور حول البلطجية وقطاع الطرق والداعارات فلم تستطع أن تكمل متابعتها.

كانت مها في هذه الفترة قد خسرت عدة كيلوجرامات إضافية من وزنها وظهر التعب والشحوب علي وجهها أكثر من ذي قبل وكانت تتناول القهوة بطريقة مكثفة علي مدار اليوم مع امتناعها عن تناول الأكل تقريباً.

***

استيقظت مها فجأة بالليل فتطلعت إلى هاتفها المحمول الموجود علي الكمود بجانها ووجدت أن الساعة لم تتجاوز الثانية صباحاً فاندهشت من استيقاظها في هذا الوقت وتذكرت أحداث يومها الذي يدور حول استيقاظها من النوم ظهراَ وعدم تناولها لأي طعام وجدالها المتتالي مع والدتها عن جدوي ما تفعله في حياتها وعن عدم ذهابها إلى العمل أو النزول من البيت، راجعت الأعمال التي شاهدتها في التلفزيون والمكالمات الهاتفية بينها وبين بسمة التي تتهرب منها كالعادة.

تطلعت إلى الساعة مرة أخرى ووجدت قد مر أكثر من نصف ساعة وهي تستجدي نومًا لا يأتي، ثم بعدها تذكرت مصطفى، تذكرت تفاصيل من حياتهما معا، كلامه عن عملها، مساندته المستمرة لها ثم تذكرت رشا في هذه اللحظة تأوهات وهي تقول: لا، يا ربي متي سأنسي؟ ولماذا يمتص الحزن أرواحنا بهذه الطريقة؟

تذكرت إصراره علي عدم مكوثها معهم، تذكرت هدوئه فيما بعد وتقبله لها، أحست بغبائها لأنها لم تحس بما يحدث ولم تعرف إلا بعد ما حدثت المصيبة، تذكرت الخبر الصغير لزوج رئيس جمعية هتك عرض فتاة بها، وتذكرت الفتاة التي تشبه رشا التي كانت تحيك علي الماكينة.

تذكرت ما حدث لها من دوار وقيء داخل الجمعية والذي حرمها الدخول مرة أخري تذكرت كل هذا مع عيون تجافيها النوم لساعات.

***

انتظرت مها في صالة الاستقبال في تلك العياة الكبيرة حتى أشارت فتاة تعمل باستقبال المرضي مبتسمة: تفضلي يا مدام.

سارت مها ببطء إلى حجرة الكشف، واستقبلها الطبيب مبتسماً ، هو رجل في الأربعنيات من عمره يرتدي ملابس تظهر ذوق راق وإن

كانـت تغلـب عليه البسـاطة قميـص أبيـض وبنطلـون رمـادي اللون، يعاني من تساقط شـعره عند مقدمة رأسـه ويرتدي نظارة صغيرة تحدد عينيه الصغيرتين الذي تبدي ذكاء صاحبها

جلسـت مها أمامه في حـرج فأمسـك بورقة أمامـه قرأ منهـا: مدام مها، أهلا وسهلا !!

مها بنفس الحرج: أهلا بك.

تطلع لها لحظات ثم قال: من أين تحبين أن نبدأ؟

– أنـا لا أعانـي من مشـاكل كمـا تظـن، كل ما فـي الموضـوع أني أعاني من أرق منذ عدة أسابيع.

– وما تظنين أنه سيكون سبب الأرق؟

– ربما القلق علي عملي.

تطلـع لهـا الطبيـب للحظـات ثم قـال وهـو ينظر مـرة آخـري إلى الـورق أمامـه: مدام مهـا أنـت تبلغين مـن العمر سـبع وثلاثيـن عاماً، لا أظن أن مشـكلتك في العمل، ربما يمكننا أن نبدأ من طلاقك، أظن أن هذا الطلاق حدث مؤخراً.

– لقد مر ما يقرب من سنة علي طلاقي، لقد تعديت هذا الأمر.

تطلع لهـا الطبيب ثم قال فـي حزم:لماذا جئت لي يا مـدام مها؟ أو يا دكتورة مها فأنت أستاذة في جامعة الإسكندرية !!

– أنا لا أستطيع النوم، لم يجد الطبيب سبب عضوي لهذا الأرق، كنت أريد أن توصف لي بعض الحبوب المنومة حتي.....

قاطعها الطبيب: أظن أن الطبيب الذي قمتي بزيارته قد كتب لك فعلا منوم حتى تستطعين النوم خلال الأيام الماضية لكنك وجدت نفسك عاجزة عن النوم من غيره ولهذا جئت لي حتى يتسني لك حل جذور المشكلة

تطلعت له مها ولم تعقب، فقال الطبيب: من أين نبدأ يا دكتورة؟

مها في سرعة: لا يوجد ما يمكني أن أتكلم فيه، لقد تعديت طلاقي

– في هذه الحالة يمكنك الاستمرارفي تناول الحبوب التي وصفها لك الطبيب الآخر

تشاغل عنها بالنظر إلى أوراق أمامه ثم فتطلعت لها مها صامتة ثم قامت في غضب وأغلقت باب حجرة الكشف في غضب لدرجة أدهشت الفتاة الجالسة بالخارج، وتحركت نحوالمصعد ومرت بجوار اللوحة المعلقة بجوار العيادة (دكتور عمر فتوح أستاذ الطب النفسي جامعة الإسكندرية)

***

تكرر ما تعانيه مها من أرق لليالي متتابعة، فبعد أن كانت تهرب من مشاكلها بالنوم خاصمها هو الآخر وكأن جسدها قد عقد اتفاق مع مشاكلها ليحرمها متعة الهروب من تلك المشاكل

لساعات قليلة يومية، مما زادها تعب علي تعبها وظهر الإرهاق جلياً علي وجهها. استيقظت والدتها فوجدتها جالسة علي الأريكة في الصالة وقد ظهر طول جلوسها علي هذه الحالة.

كانت والدتها قد بدأت تشعر باليأس مع جدالها الذي يظهر أنه لا طائل منه مع ابنتها فقالت في اقتضاب: هل أعد لك القهوة؟

- سأمتنع عن شرب القهوة، فأنا لم أنم مطلقاً بالأمس.

جاءها صوت والدتها وهي تتحرك نحوالمطبخ: مها أنت بحاجة للذهاب لطبيب، بهذه الحالة ستصابي بالجنون خلال أيام !!

***

جلست مها علي كنبة مريحة وجلس أمامها الطبيب عمر فتوح علي كرسي يبتعد عنها قليلا ويمسك بيده ورقة وقلم

بدأت مها في التحدث بهدوء: أريد أن أبدأ من قصة زواجي

أشار لها عمر بيده وهو يقول: كما تحبين..

ابتسمت مها قائلة: مصطفى كان يكبرني بثلاث سنوات، تزوجنا بعدما أكمل دراسته الجامعية بكلية الهندسة، لم أكن قد أكملت دراستي بعد، كان ينقصني عاماً، لم يتوقع كل من حولنا نجاح تلك الزيجة، فهو لم يكن يملك شيئاً، تزوجنا في حجرة في شقة عائلته.

صمتت مها وسهمت قليلا، لم يتعجلها عمر فتطلعت له ثم أكملت مبتسمة: ولكننا نجحنا نجحنا رغم كل الظروف، بعد زواجنا

بعـام جاءته فرصـة عمل جيـدة بالكويت، سـافر ورجعـت للإقامة في بيت عائلتي

تطلع لها عمر منتبهاً ثم قال: كيف وافق أهلك علي هذه الزيجة؟

– لـم يوافقـوا، أبي وافـق بعد مـدة كبيـرة مـن إقناعي له، قـال في النهاية أنه يثق في رجاحة عقلي، يرحمه الله.

صمتـت مها لحظـات ثـم أكملـت: بعدهـا سـافرت لمصطفى في الكويت واسـتغللت الوقت في الغربة للتحضير لدراسـة الماجيسـتر، لـم تطل بنـا الغربـة رجعنا بعـد ثـلاث سـنوات، ونجح مصطفـى بعد سـنوات قليلة مـن افتتاح المكتب الهندسـي الـذي كان يحلـم به، لقد اتضح فـي النهاية أنـي وضعت ثقتـي في رجـل بمعني الكلمـة، وقف بجواري لأكمل دراستي وعملي وعملي التطوعي.

– هل تشعرين الآن انهم كانوا علي حق في توقع فشل هذه الزيجة؟

تطلعت له مهـا للحظات ثم قالت فـي ألم: لم يتوقـع أحد أن يدوم هذه الزواج هذه المدة، سـبعة عشـر عاما، الكل توقع الفشـل في أول سـنة لزواجنا، الصادم الآن هو انهيـار هذا الزواج بعد هـذه المدة، لقد كان زواجاً يضرب به المثل.

دمعت عينها وهـي تقول: لم اتوقـع أنا ماحـدث، لقدكنت أظن أنه وحده الموت يمكن أن يفرقنا ولا شي ء آخر.

***

امتلأ المحل بالاطفال للاحتفال بعيد الميلاد، تزينت أركانه بالبلونات والزينة ذات الألوان المختلفة، ارتفع صوت الأطفال في سعادة، ظهر أسامة بجانب طفل ووقفت شابة بجواره يظهر أنها زوجته، كانت تظهر عليهم السعادة وطفقت الزوجة تقبل الطفل، بعيداً عن هذه الأجواء، جلست مها في إحدي الأركان تتابع ما يحدث من بعيد، لم يكن يظهر عليها أي بهجة أو حتى تفاعل مع ما يحدث.

فجاءتها الشابة مبتسمة وقالت: مها ماذا تفعلين؟ سوف نقطع التورتة...

قامت مها في بطء ثم قالت: أماني لا اشعر أني بخير، سأذهب للبيت..

أماني في دهشة: الآن؟ مروان سيشعر بالحزن !!

تحركت مها للخارج وهي تقول: سوف أزوركم قريباً وأجلب هديته التي لم أجلبها اليوم.

لمحها أسامة أثناء خروجها فتطلع لزوجته التي رفعت يداهاو أعطي وجهها إيحاء لا أعرف.

ركبت مها سيارتها وانطلقت بها في سرعة وفي هذه اللحظة تذكرت مها بكائها عندما عرفت من الطبيب أنها لن تستطيع أن تكون أما، وقتها مسح مصطفى دموعها واحتضانه له مؤكداً أنه لا يريد أطفال، وأنه يريدها هي فقط.

لم تتوقف دموعها وتسائلت عن ذنبه في هذا، ومتي سيأتي اليوم الذي سيندم علي قراره هذا؟ إلا أن مصطفى أكد أنه: أنه لن يندم أبدا علي حبه لها!!

تكررت دموع الماضي بعدما أحست بخسارة كل شي ء وليس الأطفال فقط، زواجها، وعملها كأستاذة جامعية، عملها التطوعي في الجمعية.

تساءلت هل كان عليها أن تخرج من هذا الزواج صفر اليدين بهذه الطريقة؟ تمنت أن تكون قد خرجت بطفل فقط من هذه الزيجة يشعرها بمعني حياتها في هذه اللحظة.

***

جلست مها مجدداً أمام عمر في نفس الجلسة واستطردت حديثها قائلة: وهكذا تم طلاقنا بعد سبع عشر سنة زواج.

- هل تشعرين بالندم علي القرار؟

- لم اشعر بالندم ولكني تساءلت مرارا وتكرارا كيف أمكنه أن يفعل بي ذلك؟

- هولم يكن في نيته هذا من البداية؟

- لا بالطبع، لقد اعترض علي وجودها

- هل اشتكى من عملك وانشغالك به؟

تطلعت له لحظات ثم قالت: لماذا تسأل هذا السؤال؟

– ربما كان يعاني زوجك من أزمة منتصف العمر وهذا ما دفعه لفعل ذلك.

هتفت مها: كيف يمكنك أن تعطيه مبررا لما فعله؟

عمر مبتسماً: أنا لا اعطيه مبررا أبدا لما فعله، أنا أطلعك فقط علي أبعاد ما حدث، فهذا ما يوصلنا لحل مشكلتك وهي ما تعنيني.

تطلعت له مها ثم قالت في ألم: ماذا عنها، كيف يمكنها أن ترد لي ما حدث بهذه الطريقة؟

– الفتاة كانت تشعر بالندم الشديد قبل حتى مغادرتها بيتك، لاحظي أنها مراهقة صغيرة تعاني من الإهمال الشديد من والدها الذي كان علي استعداد لبيعها للثري العربي تحت مسمي زواجها، وجدت زوجك أمامها وهو يعامها جيداً ليس والدها ربما إذن فهو حبيبها، هذه الفتاة ضحية أنك تعرفين ذلك جيداً.

صمت لحظات ليري تأثير كلامته عليها ثم أكمل: سبب الأرق، وعدم مقدرتك دخول الجمعية أو الذهاب للكلية ليس طلاقك أو تعرضك للخيانة وإنما هو أحساسك بالعجز من عدم قدرتك عمل شيئا تجاه ما حدث لتحملك جزءا من المسئولية.

دمعت عينا مها فأكمل: إذا كان ما حدث مع رشا قد حدث مع أي فتاة أخري لاتخدتي كل الإجراءات القانونية ليتم تزويجها ممن

هتك عرضها، إلا أنك عضضت الطرف عما حدث كأنه لم يحدث، تلك هي مشكلتك الحقيقة.

***

تحسنت حالة مها في الأونة الأخيرة فقد استطاعت النوم أخيرا بدون الحبوب المنومة بعد تكرر زيارتها للطبيب عمر فتوح، إلا أنها في هذه الليلة قامت من نومها فجأة، شعرت بالرغبة الشديدة في النوم فاطمأنت أن حالة الأرق لم تعود إليها،

تحركت إلى الحمام فسمعت والدتها في حجرتها تبكي بصوت منخفض وتقول: يا رب، أصلح حال مها واشفيها مما تعانيه، أصلح حال مها واشفيها مما تعانيه،

تحركت مها في إتجاه حجرة والدتها وتطلعت لها علي الضوء الضعيف القادم من الشباك وانتظرت حتى سلمت ثم تحركت نحوها وجلست بجوارها فزعت الأم في البداية وقالت: خير يا مها؟

ربتت مها علي كتفها قائلة: أنا بخير يا أمي، سأعود للنوم الآن، لا تقلقي، أمسكت الأم بيد ابتنها في حنان وهي تقول: الحمد لله،

- لقد كنت اذهب لطبيب نفسي

- أعرف ذلك.

ظهر شبح ابتسامة علي وجه مها وقالت: وسأذهب للجامعة غداً.

هتفت ماجدة في فرح: الحمد لله، الحمد لله.

ضغطت الأم علي يد مها وهي تقول: ارجعي لنومك حتى تستطيعي الاستيقاظ غدا.

ابتسمت مها وهي تمتثل لرغبة والدتها وتغادر حجرتها.

***

جلست مها أمام بسمة التي قالت ضاحكة: كان يجب أن تشاهديها يا مها، بعدما أعلنت أنها لن تأكل معنا بسبب اتباعها نظام عذائي لتقليل وزنها ثم رؤيتها للطعام وانكبابها علي كل الأطباق في نهم.

ضحكت مها حتى دمعت عينها، أكملت بسمة: لقد كنا نعرف ذلك، هذا بعد نقدها لوزن كلا منا ونصيحتها بتقليدها في حميتها الغذائية.

استمر ضحك مها فقالت بسمة سأذهب لأهاتف محمد للإطمئنان علي الأولاد، تحركت بسمة نحوالبلكونة في الصالة، فامسكت مها بجهاز التحكم الألكتروني للتلفاز، وأدارات قنواته في ملل حتى توقفت عند أحدي البرامج الحوارية التي تذيعه مذيعة مشهورة.

تابعت مها الحوار الذي كان يدور حول زواج القاصرات وعرضت الحلقة حالة لفتاة تبلغ من العمر سبعة عشر عاماً، تزوجت عندما كانت تبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً من شاب يكبرها بنحو

أربعة عشـر عاماً، ولجوء والدتها لتسـنينها في وزارة الصحة رغم أنها كانـت تـدرس بالمدرسـة ولا تحتـاج للتسـنين، وأوضحـت الفتاة أن التسـنين كان لإثبات أنها تجاوزت الثامنة عشـر حتى تسـتطيع والدتها تزويجها من هذا الشاب.

سـألت المذيعة الفتاة عن سبب إسـتعجال والدتها لإتمام هذا الزواج وهي دون السـن القانوني للزواج، كانت إجابة الفتـاة أن الأم تعبت من الإنفاق علي ثلاثة أبناء وهي تحصل علي معاش صغير لا يكفيهم.

تابعـت مهـا جـزءاً مـن الحـوار ثـم أغلقـت التلفزيـون قبـل نهاية الحلقة، جاءت بسمة وجلست جوارها وقالت: لماذا أغلقتيه؟

قالت مها في ضجر: ملل...

***

نزلـت مهـا سـلالم بيـت والدتهـا واتجهـت إلـى سـيارتها فوجدت مـن ينـادي عليهـا فالتفتت حولهـا فوجـدت فتاة لم تبلغ العشـرين من عمرهـا يظهر عليهـا النحافة الشـديدة التـي لولاها لظهر جمالها وجمال ملامحها

تطلعـت لها مهـا فـي دهشـة: صبـاح؟ مـاذا تفعليـن هنـا؟ وكيف وصلت إلي؟

صباح في سـرعة: سـألت أسـتاذة ابتسـام علي عنوانك، ثم سألت البواب علي عنوان والدتك..

- خير يا صباح؟ ما الأمر؟

- سأتزوج اليوم يا دكتورة...

- كيف يمكن تزوجيك؟ أنك لم تبلغي السادسة عشر !!

صباح: لن يتم توثيق العقد حتى أتم السن القانوني، ولكني سأتزوج الليلة من رجل في الستين من عمره، متزوج ولديه أبناء في مثل سني.

- ارفضي هذا الزواج يا صباح.

- رفضت يا دكتورة ولا يوجد أمل في مقاومتهم، لذلك هربت من البيت ولكنهم في الجمعية قالوا أنهم لا يستطعيون استقبالي، لهذا جئت لك.

تطلعت لها مها في وجوم وتذكرت حديثها مع رشا (هربت من كتب الكتاب يا دكتورة، كان ابي يصر علي تزويجي من الشيخ الذي يبلغ الستين) ، (لا أعرف مكان آخر أذهب له)، (أنا لا أعرف أي أحد هنا في الإسكندرية).

قاطعت مها أفكارها نفسها وهتفت قائلة: لا، لا..

أكملت صباح حديثها في رجاء لم تسمع مها منه حرف ودار سؤال داخل عقلها يقول: ماذا يمكن أن اخسر أكثر مما خسرته، ماذا تريدون مني؟

عندما صمتت صباح تحدثت مها في حزم: صباح الهرب ليس حلاً ، ارجعي لمنزلك اليوم وارفضي أمام المأذون هذا الزواج، واذهبي للجمعية غدا سيقومون علي مساعدتك بشتي الطرق أنا ساحرص علي ذلك..

تحركت مها بدون أن تلتفت لصباح ثم استقلت سيارتها أمام وجوم صباح وصدمتها.

***

أوقفت مها السيارة أمام بوابة الكلية ثم ظلت ممسكة بمقود السيارة عدة دقائق وهي تتذكر نظرة صباح لها وهي تتركها أمام البيت، ثم أخرجت هاتفها المحمول من الحقيبة وضغطت علي شاشته واتنظرت قليلاً ثم قالت: كيف حالك يا ابتسام؟ أنا بخير الحمد لله، سوف آتي إلى الجمعية بالطبع، ابتسام كنت أريد أن اعرف عنوان أحدي الفتيات من المشغل (صباح) هل تتذكريها، نعم من المشغل، لا أذكر اسمها بالكامل، أنت ذهبت للبيت؟ أريد هذا العنوان علي وجه السرعة، لا يوجد مشكلة.

انهت مها مكالمتها وهي تأخذ الطريق إلى البيت مرة أخري وفتحت الباب وهي تتحدث مرة آخري بهاتفها المحمول وتقول بانفعال: ابتسام، أنا أريد هذا العنوان بصورة قصوي، سأتصل بك كل دقيقة حتى تجلبي العنوان....

خرجت الأم من المطبخ فأشارت لها مها بالسلام وهي تتحدث: اتصلي بأي شخص بالجمعية يعرف عنوانها..

أغلقت مها هاتفها المحمول ثم جاءها صوت والدتها القلق: كيف حالك حبيبتي؟

أجابت وهي تقف أمام أحد شبابيك الشقة: بخير يا أمي.

سرحت مها مع أفكارها وهي تتطلع إلى حركة الناس في الشارع في تلك المنطقة الحيوية وإلي حركة السيارات وارتفاع صوت الآت التنبيه، حتى ارتفع صوت هاتفها المحمول فاعطته كامل انتباهها وهي تستمع إلى صوت إبتسام ثم تهتف: ما معني أنه لا يوجد من يأتي بالعنوان من الجمعية يا ابتسام؟ لم تكن هذه طريقة عملنا أبداً.

ثم قالت في حزم: ابتسام، أنا أريد العنوان الآن ولا أريد أن أسمع حجج واهية، اتصلي بي عندما تصلي إليه.

تطلعت مها إلى الشارع مرة أخري وتابعت ببال مشغول مشادة كلامية بين سائق أجرة وسائق سيارة ملاكي حول عبور الطريق، فجاءتها الأم وقبلتها وهي تقول: ما الأمر؟ لماذا عديتي من الكلية بهذه السرعة؟

ابتسمت مها وهي ساهمة: لا شي ء يا أمي، مشكلة صغيرة في الجمعية.

رن هاتفها مرة آخري فضغطت أزراره في سرعة وانتظرت لتسمع من ابتسام، ثم صرخت: ما معني أنه لا يعرف عنوانها كاملاً، غير

متأكـد، أين فـي غيـط العنـب؟، ثـم انهـت المكالمـة وهي تقـول في حـزم: ابتسـام سـوف أذهـب للجمعيـة الآن للحصـول علـي العنوان بنفسي.

تحركـت مهـا وأمسـكت حقيبتهـا فخرجـت ماجـدة مـن المطبخ قائلة: إلى أين؟

مها وهي تفتح الباب: لن أتاخر..

***

قادت سـيارتها مدة ثم توقفت كثيراً في إشـارة مرور، فنفخت في نفـاذ صبر ثـم نظرت إلـى سـاعة يديهـا التي أشـارت إلى السـاعة الخامسـة، قادت ما يقرب من نصف سـاعة حتى وصلت إلى الجمعية ثم تحركـت إلى الداخل بسـرعة ولم تتوقف لتـرد علي تحية رجل الأمن الذي تبعها إلى داخل الجمعية.

تحركـت نحوأحـد المكاتب في الجمعيـة، حاولت فتحـه فوجدته موصدا، فظهـرت ابتسـام التـي وصلت بعدهـا بدقائـق إلـى الجمعية وقالت في سرعة: كيف حالك يا دكتورة؟

- أين مفتاح المكتب يا ابتسام؟-

- الموظفـة تنهـي عملها فـي الثالثـة، المفتاح سـيكون فـي مكتب الأمن.....

قاطعتها مها في ضجر: المفتاح يا ابتسام !!

تحركت ابتسام مبتعدة وغابت لدقائق ثم جاءت بالمفتاح، دخلت مها في سرعة وأضاءت مصباح الحجرة ثم تحركت نحوأحد الدولايب فاخرجت كل الملفات، أعطت جزءاً منها لابتسام ونادت علي رجل الأمن قائلة: خذ يا محمد، ابحث عن عنوان فتاة تسمي صباح !!

استمر بحث الثلاثة نحو ما يقرب من نصف ساعة حتى هتفت ابتسام وهي تمسك بالملف قائلة: وجدتها يا دكتورة....

أقبلت عليها مها في سرعة وأمسكت بالملف للتأكد من الصورة ثم قرأت العنوان وسحبت ورقة وقلم من علي أحد المكاتب ودونت العنوان وانصرفت مسرعة فهتفت ابتسام: ماذا ستفعلين به يا دكتورة؟

لم تجيبها مها وتحركت نحو سيارتها وقادتها مسرعة، كانت صباح تسكن في غيط العنب كلفت مها ما يقرب من الساعة ونصف لتصل إلى العنوان، وصلت مها إلى المكان وشقت طريقها في الحواري التي تمتلأ بالمباني السكنية المتلاصقة التي يظهر عشوائية بنائها.

استفسرت عدة مرات عن العنوان حتى وجدت مبني سكنياً لا يزيد عن دور واحد معلق عليه عنقود مصابيح ملونة مغلقة، بدأت في صعود السلم في بطء فقد كانت حالته سيئة لا تختلف كثيرا عن حال المبني.

وجدت بـاب أحدي الشـقق مفتوحـاَ وهناك تجمع لبعـض الناس بالداخـل وسـمعت عويـلاً باكيـاً، دخلـت مهـا إلى الشـقة فـي بط ء، وظهرت بساطة حال الشقة سواء من أثاث بسيط أو دهان متأكل.

كانت أحدي السـيدات تبكي في حرقـة وتهز صبـاح التي تمددت أمامها بدون أي رد فعل: صباح، ردي علي أمك يا ضنايا...

تطلعـت مهـا إلـى صبـاح أوإلـي جثـة صبـاح الملقيـة علـي الأرض بـلا حول، ذلـك الجسـد الهزيل الذي غـاب عنه الـروح فزاد شـحوبه وضعفـه ، وسـمعت مـن يقـول مـن النـاس: لا إلـه إلا الله، شربت سم الفئران.

تحركـت مها لتنـزل السـلم ببطء وسـارت دقائـق إلى سـيارتها ثم قادتها في وجوم.

مر علـي ذاكرتها وجـه صبـاح عندما تركتهـا أمام الكليـة وتذكرت كلامتها (لهـذا جئت لـك)، (ولا يوجـد أمل فـي مقاومتهـم) ترددت تلـك الكلمـات عـدة مـرات فـي رأسـها وتذكـرت بعدها رشـا وآخر كلماتها لها (لا أعـرف مكان آخر أذهـب له)، (لا أعـرف أي أحد هنا في الإسـكندرية) لا تـدري كم مـن الوقت قـادت إلا أنها لـم تنفصل عن تلك الأصوات إلا عندما اصدمت بشجرة في عنف.

شـعرت بالدوار ومدت يدها لتمسـك بيده لتسـاعدها للخروج من السـيارة، تجمع حولها الناس وحاولوا إسـعافها وكرروا أسـئلتهم عن اسـمها ومن يمكنهـم الاتصال به للمسـاعدة، لـم تجيبهم مهـا وكأنها غائبة عما يحدث ثم قالت في وجوم: سأذهب للمنزل....

اعترض الناس علي ذلك فقد كانت تحتاج للذهاب للمستشفي إلا أنه مع إصرارها لم يجدوا بداً سوى تركها لتذهب مكان ما تريد، ساعدوها لتغلق سيارتها، ثم بدأت مها المشي مبتعدة عن الناس ثم جرت بأقصي سرعة لها وهي تبكي.

وصلت للمنزل فطرقت الباب في عنف فتحت الأم وذعرت عندما وجدت الدماء علي ملابس مها فقالت في فزع: ماذا حدث؟

تحدثت مها في سرعة وسط دموعها: ماتت يا أمي، انتحرت، أنا التي قتلتها، لقد لجئت لي لأساعدها وتركتها...

هتفت الأم في فزع: أنا لا افهم شيئاً، ما الذي حدث يا مها؟

– لم اساعدها فضاعت، كما ضاعت رشا من قبل، أنا السبب في ضياعهم، أنا السبب !!

قالت هذه الجملة ثم انهارت مغشياً عليها.

***

فتحت مها عينها فوجدت نفسها في حجرة مستشفي تتصل المحاليل بذارعها استغرقت عدة لحظات حتى أبصرت والدتها وأسامة وزوجته، شعرت بالتعب الشديد فأغمضت عينها وعندما فتحتهم وجدت الطبيب عمر فتوح فقالت في وهن: ماذا حدث؟

قال في هدوء: انهيار عصبي.

تأوهت في ألم واضح فقال عمر برفق: ارتاحي الآن.

أغلقت عينها وغابت عن الوعي مرة أخري.

***

جلست مها علي السرير وقد ظهر التحسن عليها فجاء عمر مبتسماً وهو يقول: كيف حالك اليوم؟

تطلعت له مها مبتسمة ثم قالت: كنت أظن أني وصلت للقاع منذ زمن، لم أكن أعرف أنني يمكني السقوط أكثر !!

سحب عمر كرسيا وجلس أمامها ثم قال مبتسماً: الحقيقة أنك ابتعدت عن القاع وليس العكس.

- كيف يمكنك أن تقول ذلك؟ أنت لا تعرف ماذا حدث !!

- بالطبع أعرف، لقد حاولت مساعدة الفتاة بالفعل، ليس لك ذنب في انتحارها.

- كيف يمكنك قول هذا ؟

أخرج عمر من أحد الأدارج في كمود موجود بجوار مها وقال: هذه المرة نشرت القصة كاملة باسمك وصورتك.

أمسكت مها بالجريدة فوجدت عنوان مقال (من ينقذ القاصرات من الإتجار بهن) - (رئيسة جمعية زهرات الحياة تحاول إنقاذ فتاة من المصير المحتوم ولكن الفتاة تنتحر هرباً من الزواج من مسن)

أكملت مها القراءة فوجدت تفاصيل رحلتها إلى بيت صباح وتأخرها لتجد الفتاة جثة هامدة.

وضعت مها الجريدة في غضب وقالت: هل رأيت؟ ضاعت صباح كما ضاعت رشا من قبل.

- لقد حاولت مساعدتها بالفعل، ليس ذنبك انتحارها.

- لقد تركتها أمام البيت ومشيت كان لابد.....

قاطعها عمر: هل كنت تردين أن تذهبي بها إلى بيت والدتك كما ذهبت من قبل برشا إلى بيتك. دورك هو الحل الجذري، حل لكل الفتيات، مساعدتك للفتيات علي الهرب هو نوع من المسكنات لن يحل أي مشكلة.

ترقرت الدموع من عين مها وهي تقول: لقد فشلت، لا أعرف ماذا أفعل؟فشلت عندما اقتربت منهن وفشلت حين ابتعدت عنهن.

- الموضوع آثار ضجة كبيرة يمكنك الاستفادة بها للقضية.

- سيتذكروهن لأيام ثم ينسون من جديد.

- أنت لن تنسي، أنها قضيتك ستحاربين من أجلها.

تطلعت له مها ثم قالت في تردد: ماذا لو لم أنجح؟

- أي فتاة لن تواجه مصير صباح أو رشا ستكونين نجحت معها، يكفيك هذا النجاح.

تطلعت له مها ثم التفتت إلى الشباك وقد تخللت أشعة الشمس زجاجه صاحباً معه أمل للمستقبل.

***

بدت مها مشرقة بما ترتدتيه من ملابس يغلب عليها اللون الأبيض تاركة خصلات شعرها السوداء يطيرها الهواء، وضحت السعادة علي ملامحها وهي تتجول معرض الفتيات في الذي يبيع المنسوجات والملابس وبعض المأكولات، كانت توزع ابتسامتها علي الفتيات اللاتي وفقن بجوار أعمالهن.

فجاءت إحدي الصحفيات وقالت: دكتورة مها، مجهودك في إنقاذ هذه الفتيات مشرف، هل يمكنا إلتقاط صورة لك؟

تطلعت لها مها مبتسمة ثم قالت: ليس وحدي من فضلك ثم ناديت: يا بنات إجمعن من أجل الصورة.

بدأت الفتيات الصغيرات التي لم تتجاوز أعمار معظمهم العشرين في التجمع حولها، أحست أنها تري صباح ورشا بينهن وهن يضحكن في سعادة مع باقي الفتيات، ثم التفتت إلى الصحفية قائلة: مع الزهرات.

ابتسمت وهي تنظر للمصور ثم همست: هن من أنقذوني.

أخذ المصور صورة لمها تحيط بها الفتيات من كل إتجاه تحت لافتة (المعرض الأول لجمعية زهرات الحياة في الحواميدية).

نبـــذة عـــن المؤلفـــة

فاطمـة يسـري البرجـي خريجـة هندسـة كيميائيـة عـام 2010 كلية الهندسـة جامعة الإسـكندرية، تعمـل كمهندسـة تخطيط، نشـرت لها العديـد مـن المقـالات والقصـص القصيـرة علـي عـدد مـن المواقع الإلكترونيـة، اشـتركت فـي المجموعـة القصصيـة «الفتيـات لاتحب فصل الربيع»، لها مجموعة قصصية تحت الطبع «خصم ثلاثة أيام».

للتواصـل مـع المؤلفـة

عبر صفحة الفيس بوك

www.facebook.com/fatmae.elborg

أو عن طريق الإيميل

Fatma.elborgy 102 @yahoo.com

السَّعيد
للنشر والتوزيع